متى تعفو

متى تعفو (نصوص)
عائشة الكيلاني (كاتبة أردنية)
الطبعة العربية الأولى 2022.
© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون
المدير العام: د. باسم الزعبي
الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط 1.
هاتف: 797162720، 65620722 (962+)
alaan.publish@gmail.com
www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: م. سجود العناسوة
All rights reserved. No part of this book may be reproduced،stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.
جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.
ISBN: 978-9923-13-501-3

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2022 /4 /2168)

819

الكيلاني، عائشة محمد أمين
متى تعفو/ عائشة محمد أمين الكيلاني. عمان: الآن ناشرون وموزعون، **2022**
(96) ص
ر. إ: **2168/ 4/ 2022**
الواصفات: النصوص الأدبية/ / الخواطر الأدبية/ / الأدب العربي
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

عائشة الكيلاني

متى تعفـــو

نصوص

الإهداء

إلى كل أنثى..

على قلب أنثى واحدة، نهضن كـافحن بـذرن وقطفـن ثمـارهن، فـأينعن ورودا تزهـر الحياة بهن.

تختالين أيتها المرأة بقلب معطاء وصبر لا مثيـل لـه.. فأنـت المكـان والزمـان.. القـوة والضعف.. تحتمين بمظلة أنت عامودها.. تلجئين لبيت أنت أركانـه.. تـرافقين محرمـا أنت رحمه.. فكل عام وأنت كـل شـيء.. أنـت الأمـل.. وأنـت الضـلع الـذي يكمـل باعوجاجه.. والجدار المنيع الذي يحمل الدنيا بما فيها..

نفائس في بقعة الضوء

نثر كنوزه أمامه من كل الفئات وبدأ بتصنيفها بحركة سريعة تنمُّ عن خبرته الطويلة بجمع النفائس، ثم جمعها وذهب بها إلى الخزينة القديمة لوضعها مع أخواتها المرصوصات جنبا إلى جنب، وأدار ظهره بعدما تأكد من إغلاق خزنته بإحكام ومضى..

ثم في داخل هذا الصندوق المغلق تصاعدت الهمسات. صوت رفيع من حجر كريم: «ما الذي أحضركن هنا أيتها النفيسات؟؟ كيف وَجَدَكن؟؟».

فقالت إحدى القادمات: «كنت معلقة في أحد المتاحف، وكنت أغلى قطعة؛ ينبهر الجميع بجمالي وبريقي، فجاء صاحبنا وعرض خدمة على صاحب المتحف فلم يستطع الرفض، وبادلني بمساومة دنيئة».

وقالت أخرى: «أما أنا فكنت عند أحد سادة المنطقة، وقد وضعني على حائطه معتزا بي وبعراقتي. ثم جاء هذا التاجر فاستغفل مالكي وسرقني بسرعة وأنكر فعلته».

وقالت الثالثة: «أما أنا فقد وُضعتُ في مزاد بعد إفلاس العائلة، واضطروا لعرضي في المزاد وأخذني ببخس المال».

ثم قالت واحدة وبصوتها ألم: «أما أنا فجئتُ راغبة في معسول كلامه. لقد أوهمني أنه سيحفظني ويرعاني وسأكون معه في كل مكان يكون فيه».

وانبرت الأخريات بالحديث بعد أن أخذهن شجن الكلام، وشرحن ما آل بهن إلى هذه الخزنة المعتمة الموحشة، ولكل واحدة منهن ماضٍ جميل عزيز، وأسكتهن صوت التاجر قادما ومعه صوت آخر.

فتح خزنته وأخرج بعضا من حجارته الكريمة وبدأ التفاخر قائلا: «لقد دفعتُ أموالا طائلة لقاء هذه النفائس، ولكل واحدة منهن معزة خاصة وغالية. الصحيح أنني ما كنت لأفرط بها لولا معزتك». وأمعن في النفاق والكذب وهو يحدث صديقه الذي لا يعلم مع أي جَشِع قد وقع. فسأله الأخير عن قيمة ما يطلب، فضرب له ثمنا أضعاف ما دفع، وهو يحلف له أن هذا الرقم أقل مما دفع بها بكثير. فصدقه وانتقى حجرين مما يملك بعد أن دفع ثمنهما ومضى. وأعاد ما بقي للخزنة ثم أغلقها من جديد.

وعاد الهمس في داخلها.. ما أعظم حظهما! لقد اشتراهما من سيدرك قيمتهما، سيضعهما حيث تستحقان وستنسيان عفونة الخزنة. ستريان الضوء من جديد..

مضى زمن منذ آخر مرة فتح التاجر بها صندوقه الثمين. تململت الأحجار كثيرا، كن يرين الضوء في كل مرة يفتح بها الخزنة ليشتري أو يبيع. ما الذي أخره؟ ثم بعد عدة أيام كان هناك صوت جلبة في الخارج. صمتن وصوت القفل يفتح. هذا ليس التاجر! هؤلاء أبناؤه! ما الذي حدث؟ ثم فهمن من الثرثرة أن التاجر مات وهو يعدُّ ماله، وترك خلفه أموالا طائلة.

كان نقاش الأبناء حادًّا، قال أحدهم: «لنُعِدْ ما اختلسه أبونا لمكانه». وآخر صاح به: «لا دعوة لنا بما فعل؛ إنما ورثناه وهو حقنا». وآخر ألجمته الصدمة. وبعد طول عناء قرر الجميع أن يقتسموا الأحجار، ويفعل بها كلٌّ ما يشاء.

فتفرقت الأحجار مرة أخرى، ذهب بعضهن لخزنة جديدة، وبعضهن عاد لمكانه الصحيح، وأخريات تم بيعهن لملّاك جدد.

وهناك في نواحي الأرض في كل متحف ومزاد وفوق كل حائط وطاولة عرض، كانت النفائس ينتظرن قدرهن؛ بين مستحق صاحب فضل يغمرهن الضوء، وجشع صاحب خزينة بانتظار بصيص الأمل.

ويبقى النفيس نفيسًا وإن أخفت بريقه صنائع الزمن.

أبواب على الطريق

حين نواجه أشخاصا بتركيبة خاصة، مفروضين علينا في حياتنا، لا يكون البحث عن أسبابهم أو كيفية تغييرهم هو المطلوب؛ لأنهم يعيشون متطلبات خاصة بابتلاءاتهم، ونحن لسنا جزءا منها إنما نحن فقط مجرد أبواب تقع في طريقهم، قد يقومون بفتحها لتعكس رغبات في داخلهم نحو الخير أو الشر؛ ليكتسبوا خبرات وقرارات تمكنهم من المضي قدما. ما علينا هو فقط المحافظة على رباطة جأشنا وعدم الاستسلام وعدم الشك بأنفسنا ومعرفة كيفية التعامل معهم لأجلنا نحن، حتى لا تتحول مشاكلهم إلينا ونصبح جزءا منها.

قد نحاول أن نفهم التركيبة كي نتعلم كيفية التعامل معهم، قد نحاول معهم كي نصل إلى طريق وسطي، طالما لا نستطيع الابتعاد عنهم.

فالهدف من الحياة أن نتعامل مع ابتلاءاتنا الخاصة، دون أن نعرّج على ابتلاءات المحيطين أيضا ونضمُّها لخاصتنا؛ فلن ننتهي أبدا، كما لو كان لدينا كرة خيطان متشابكة ووضعناها مع كرات أخرى متشابكة لنفك تعقيدها، حتما ستصبح المهمة صعبة جدا إن لم تكن مستحيلة.

وكما أننا مجرد أبواب، هم أيضا أبواب تمضي في حياتنا، بعضها نضطر لفتحه لتزيد خبرتنا ونكتسب قدرات نواجه بها ابتلاءاتنا، فلا نعطِ الأمور أكثر من حجمها ونحمّلها ما لا تحتمل.

لعلنا نرحمهم أو نصبر عليهم، نقدم لهم يد المساعدة، أو نردعهم عن الظلم إن استطعنا، نغفر لهم ونصفح أو نتعاطف مع ابتلاءاتهم، ولكن نتذكر دائما، نحن لسنا جزءا منها.

متى تعفو

سمعت بأذنيها تلك الأصوات التي تثرثر خلفها، وأدركت ما كان يخفى وما كان يدور. تأكدت أن ما تحاشت مواجهتهم به قد وقع منهم بكل صلف.

ضحكت بامتعاض؛ ألم يحن الوقت لتخبرهم؟؟ لعلهم لا يعلمون أنها تمتلك أدوات أخرى غير الابتسام.

كان أسلوب التغابي يلازمها في كل مرة تتعرض فيها للإيذاء، فتتجاوز الأمر كأن شيئا لم يكن.

كانت تعتقد أن التغابي هو سلاحها للدفاع عن نفسها ضد أسافين الإساءة، وهكذا اعتادت أن تتجاوز معظم قهرها وحزنها الداخلي بوجه ضاحك، حتى بلي هذا القناع، بهت لونه وما عاد يصلح لتغطية قسمات الزمن.

وكلَّ مرة تحاول أن تتصالح مع نفسها بكلمة العفو عند المقدرة؛ فتعيدها مرارًا وتكرارًا. تجدها لا تزيد على أن تقيِّدها ظاهريًّا ويبقى داخلها في صراع مرير، لا يقبل هذا القيد.

لماذا تقبل وهناك من أفلت بإساءته؟! هي تعلم أنه سيأتي يوم للحساب؛ لكنها لا تريد الانتظار، أليس القانون الإلهي يقتضي محاسبة الظالم على ظلمه في الدنيا أيضًا؟

أعادت الجملة لنفسها: العفو عند المقدرة؛ لكننا نتفاوت في هذه المقدرة. وقبل المقدرة هناك مراحل تقتضي منا المحاولة والسعي لتأديب من أساءَ ولجمِهِ عن ظلمه، وإلا أصبحت هذه الدنيا لا تطاق إن تُركَ كل من استطاع الإيذاء أن يفلت بلا عقاب.

فإن قدرنا على العفو بعد هذا كان به.

لا بد أن هناك الكثير ممّن دخل في هذا الصراع مع نفسه، وهناك من يعذر، يبرر، ثم يصمت طويلا، ويظن أنه بلغ مرحلة العفو وداخله مقهور؛ لكن التسلسل الحقيقي الذي يتمناه بعد هذا أن يأتي الانتقام كانفجار بركان.

صرخت في داخلها: الصحيح أنني لن أعض كلبا عضني كما يقولون، لكنني سأطرقه بمعول، سأطيح بأسنانه حتى لا يقوى بها على أحد غيري.

سيصف الجميع ما يرى بالقسوة.. والتنمر؛ لأنهم رأوا نصف الحقيقة. لا بأس، فالحكمة تقول أنْ قد أعذر من أنذر.

سأعود لأربت على رأسه وأداوي جراحه. ستسكن زفرات الغضب وأعفو هنا. هنا سأعفو عن مقدرة..

علمتني السنون (1)

علَّمتني السنونَ أنَّ القلب مفتاح الأماني، وآمالُنا بيد عزيز قدير كريم، واليأس خيبة، فلا نيأس وأملنا بيده.

وعلَّمتني أن من يحسدُنا ويستكثر الخير علينا، قد يئسَ من قدرة الله أنْ يُعطيه ما تأمَّلنا نحنُ به من الكريم، فندعه لخيبته.

وعلَّمتني أنَّ القلب أغلى من أنْ نرميَه تحت أقدام الحاقدين؛ بل نعطيهِ قدرَه، ننزّهه عن غلِّ من تربَّص بنا، ونترفَّع عن خوض منافسات لا تجدي، ولا نغامر بإسقاطه في مستنقعات ملوَّثة بما لا يليق به، وعلى قدر رفعته نكون، وبقدر نقائه نعلو.

علمتني أن الله يتجلى علينا بالبسط والقبض وكله خير؛ فنشكره عند البسط لنصبر عند القبض، وطالما يأخذ بأيدينا دائمًا بعد كل سقوط فلا نيأس أبدا من تحقيق أغلى أمانينا؛ لأنه هو من قال: ﴿إن مع العسر يسرا﴾.

وأنه يردنا بأساليب ندركها ولو متأخرين، قد تكون بفقد أحبة اعتدنا وجودهم، أو على هيئة زوج صالح يذكرنا صلاحه بعواقب الخير.

علمتني أن الحزن الجاثم في قلوبنا من خسارة أو فقد لا بد أن ينجلي بعطاء من نوع آخر؛ فلا شيء يستمر للأبد، طالما أن قلوبنا تعقل الأسباب.

علمتني أن العمر يمضي شئنا أم أبينا، ولا يصح أن يمضي دون أن نصقل جوهرة الحياة؛ بأن ندرك خفايا أنفسنا، على ماذا جبلنا من خير وشر؛ فننمي الخير ونحجر الشر..

وهذا الخير غالبه ما ننفع به الآخرين فليس كل الخير عبادة.

علمتني السنون (2)

علمتني أن نفسي سبب سعادتي وشقائي، وكلما لجمتُها عمّا لا تملك قنعت فتكون السعادة، وكلما أعطيتها مما هو زائل ولا ينبغي لها تمادت فكان الشقاء، وأن الحب أنواع ودرجات، وحب نفسي يعني حب الخير لها وحب من يتمنى لها الخير، والبعد عما يؤذيها وحب الآخرين بالمعنى نفسه.. «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

علمتني أن السعادة دائما منقوصة من كَدَر وكَبَد، وبشريتي تقتضي أن يتأثر الرضا بهذا النقصان؛ فلا أقيم صلاحي بدرجة سعادتي؛ فلعل هذا الكدر لب الخير، والسعادة لب الشر، والرضا يأتي ليختم النهايات، فلننتظر.

علمتني السنون أنني كلما تقدم بي العمر أُصبح:

أكثر ودا وأقل تجاوزا..

أكثر حكمة وأقل سعة..

أكثر علما وأقل تثبتا..

أكثر معرفة وأقل مشاركة..

أكثر رفضا وأقل قبولا..

فـلا أغـامر براحتـي ولا بـاتزاني، وأحفـظ أخطـائي كمـا أحفـظ حسناتي.

يحيطني القليل الصادق فأتمسك بهم كما أتمسك بأنفاسي، وأدع الكاذبين لا آبه برحيلهم.

علمتني السنون:

أن أنصح من يسألني ولا أتدخل بما لا يعنيني.

وأن أسأل من يحسن نصحي فقط.

يغضب مني الكثير فصراحتي مؤلمة فأبتعد جبرا للخواطر ولجما للسان.

تدفعني الذكريات حينا مقاربة، وحينا تجعلني أولي ظهري هربا.

علمتني السنون أن الحياة لا تخلو من:

فرح وترح..

من عطاء وأخذ..

من رضا وغضب..

وألّا يعنيني إنْ غضب الجميع وأرضيت ربي ثم نفسي ثـم الأَولـى فالأَولى.

علمتني السنون أن:

أهل بيتي هم جنتي وهم عالمي الذي لا آلو جهدا أن أقاسمه نفسي.

وأن عائلتي هي استثماري في الدنيا والآخرة.

علمتني أن الكسر لا يلتئم بل يجبر، وأن الكسور تكثر مع العمر فلا أسعى للكمال، وأرضى إن جبرت جروحي.

وعلمتني أن أنتظر المستحيل فلا مستحيل على الله. وأسعى له سعيه.

وألا أنظر لأحكام الآخرين ما دمت أعلم نفسي.

علمتني السنون:

أن أعطي فرصا لمن يستحق، فالفرصة لمن لا يستحقها ضياع للجهد والوقت.

علمتني أن أحاسب نفسي فلا أَظلِم ولا أُظلَم.

علمتني أن ألقى الله وأنا أحسن الظن به مهما كثرت ذنوبي.

غربة الأم

عيد الأم هو يوم في العام اقترب ميعاده ليحتفل الجميع به. أما أنا فهو يوم ينقبض قلبي عندما أتذكره. كرهته منذ صغري، في المدرسة كان يوما بغيضا.

لا أذكر طفولتي بشكل واضح. ما أذكره بعض اللمحات البعيدة. ولا أذكر وجه أمي تحديدا إلا ما أراه في الصور، بالرغم من أنني كنت بعمر السابعة عند وفاتها، وهو عمر كافٍ للتذكّر؛ لكنْ لا أعلم لماذا تخونني ذاكرتي، ولا أدرك عنها إلا ما أعلمه من أحاديث إخوتي. أذكر لمحة لسقوطي وكسر يدي ولهفتها بذلك اليوم. أذكر أنني كنت وأخي محمد غاضبين لسفرها لأمريكا بدوننا. وأذكر عودتها واستقبالها في المطار وكنت أجلس بحضنها خجلة، وكأن سفرها لشهر زرع بنفسي غربة طويلة، وكأنني كنت أدرك أنها ستغيب بعد شهر للأبد ولن يبقى هذا الحضن طويلا. مع ذلك أذكر كل ما حصل بعدها. يوم وفاتها وضعني خالي فوق رأسها وقال ودعي أمك، فبدأت بالصراخ والبكاء بالرغم من عدم وعيي لحقيقة المصيبة، ولم أدرك مقدار الحسرة والخسارة لفقدها. ثم قام قريب لي بحملي وتهدئتي ونقلوني لبيت اختي لألعب مع أبنائها لأنسى. الظاهر أنني نسيت الوفاة ونسيت معها كل ما مضى من حضنها الدافئ، وأنا واثقة

أنها كانت بأولى سنواتي اليدَ الحنونةَ التي تمسك بيدي وتعينني على خطو أولى خطواتي، وأنها أول ما رأت عيني صباحا وأخر ما أغمضت عليه جفوني ليلا. لكنها مجرد تأملات لا أذكرها.

مضت السنوات ولم أدرك أنني كنت أشعر بغربة طوال عمري. ولم أدرك أن بُعد الأم عن طفلها هو أعظم غربة.. وأعظم فقد.

وما أدركته فيما بعد أن خوفي من الفقد استمر معي لغاية الآن وأنا في أواخر الأربعين. وأدركت سبب الكوابيس التي كانت معي بعد إنجابي لأبنائي. أصحو وأنا أبحث عنهم في منامي خوفا عليهم في طفولتهم. حتى وهم الآن في شبابهم ما زال الخوف نفسه –حفظهم الله–. أدركت سبب تعلقي الشديد بأحبتي وعدم قدرتي على البعد؛ ففقدي كان عظيما ولا أحتمل غياب أحد آخر.

تعلَّقت بأبي رحمه الله رغم أن وجوده كان قليلا لانشغاله بالجمعيات الخيرية؛ لكن كان خوفي عليه شديدا، تعلَّقت بزوجي ثم بأبنائي. كان التعلق بأحبتي دائما أحجية لم أكن أفهمها، وقد فهمتها أخيرا.

فهمت يا أمي وقد أصبح لي أحفاد أنني لم أنسَك حقيقة؛ فكيف ننسى حبلا موصولا بالروح؟! أدركت يا أمي أنكِ كنت الغائب الحاضر في عقلي الباطن، رغم أنك لم تكوني في مراحل دراستي ولا تخرجي، ولم تحضري زواجي من ابن خالتي التي كنتِ لا تفارقينها

في حياتك، ولم تشهدي حملي ولم أمسك يدك عند إنجابي، لكنني أدركت أنني مهما فعلت؛ لم ولن أتجاوز فقدك، ففقدك كان غيابا للحب والعطف والنصح، وغيابا للأمان والقوة، وكان الصفعة التي نزلت على وجهي فزلزلت أركاني. إلا أنني أرجو الله أن يعوضني خيرا ما بقي لي من عمر، وأن يكون لقاؤنا في الآخرة أبديا في جنات عرضها السماوات والأرض نحن وجميع الأهل والأحبة. فلترقدي بسلام..

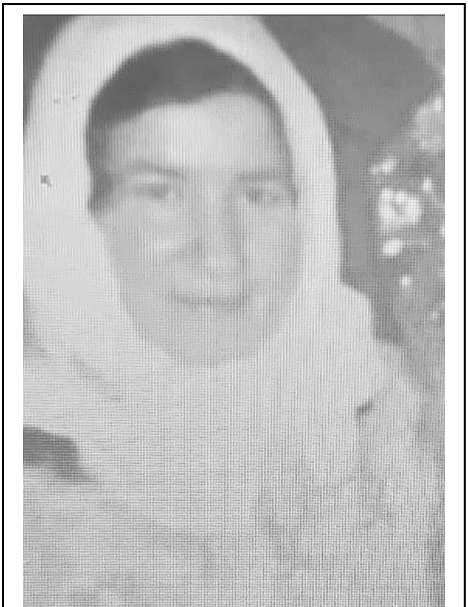

عقدة الثقة

بعض الأسماء في حياتنا تنعقد بها ثقتنا كصندوق نقفله ونرمي مفتاحه في بحر. تزدان بها حالاتنا في كل قصة نضعها فتزهر معانيها. نراها تحت منشوراتنا تعلّق بود أو تضغط بإعجاب. نرفع بها آمالنا بجميل اهتمام أصحابها فنحسها بأغنية نحفظها ليصف كلامها عمق معانينا. ثقة لا تتبدل بتبدل الأيام ولا تنقلب بانقلاب الفصول، باقية مع عصف الرياح وتطاير الأوراق من الغصون، باقية مع هطول قطرات الأمطار على أنهار تحمل الزبد فتغوص في الأعماق مثقلة بالحب رافضة الذوبان والتلاشي.

نعطيها وكلنا يقين أن ما يصل إلى أعماقنا لا يخبو، وما نقوله له وقع كوقع الصدى في وادٍ محاط بجبال فيعود باستمرار لمكانه، وأن شكوانا لا تُستقبَل بلا مبالاة وبلا التباس، فتحزن حين نحزن وتفرح حين نفرح. تفهم ما نظهر وما نبطن بلا توضيح ولا تفصيل.

هؤلاء من نغلق عليهم قلوبنا لتدفئ أسماؤهم بطيناته وتسكنها. فلتسكنوا قلوبنا للأبد..

لا تخافوا فقلوبنا أمينة متينة بحبها واهتمامها.. لن ترحلوا منها أبدا، قلوبنا تحفظ ما بداخلها كحفظ رسالة أرسلت منذ مئات السنين

داخل زجاجة أُحكم إغلاقها فاستقرت في قاع المحيطات مهما قذفتها تيارات وحملتها أمواج. ولتعلموا أن طبعة اسمكم محفوظة لتعودوا إليها حين تشاؤون، فنحن لا «نُفرمِتُ قلوبنا»، ولا نحذف بياناتها. قلوبنا ثابتة لا ترحل.

على عتبة الروح

على عتبة المنزل تجمعت قطرات المطر لتصنع بركة صغيرة. فتحت الباب لتراقب الهطول. لطالما أحبَّت رؤية تساقط المطر والوقوف تحته لتسرح في كل قطرة، تراقبها وهي تهبط وتلامس جسدها.

تشعر ببرودة الماء تنعش روحها. ربما روحها تحتاج ما يذكّرها بطبيعة هذا الجسد الذي تسكنه. هذه الطبيعة المتقلبة مع تقلب الطقس، تارة سائلة وتارة صلبة وقد تكون هشة. هذه الروح التي عانت مع تقلبات مزاجها، مع أعاصير قلبها، ربما تنشد الطمأنينة تحت هذه القطرات وقد هبطت حديثا من السماء لا تعلم ما يخبئ لها القدر؟ وأين سيكون مصيرها؟ تحملها غيمة تقذف بها دون استئذان فلا تأبه إن انتهت في مصرف أو نهر؟ تلقتها هذه الأرض وسيحدد مصيرها بعض البشر أو بعض الحجر.

هل تدرك هذه القطرات كم منتظر لها ومتلهف؟! بين أرض جفَّت ونبتة عطشت. لكنها ستجري على أي حال، ستمضي لقدرها دون اعتراض.

وها هي روحها تتشرب رطوبة هذه الكائنات الصغيرة، فتغذيها بالبهجة التي فقدتها داخل هذه الجسد. تلتحم معها على أمل أن

تطفو معها، أو تنساب على هذه الأرض فتسافر في الحقول وبين الوديان، تحررها من قيود الطين والصلصال.

تكاثف الهطول وتحول المطر إلى حبات برد، ما أقسى وقعها!

تراجعَتْ نحو العتبة ونظرت إلى هذه الحبات المتطايرة مصطدمة بقوة بكل ما تجده أمامها. كيف تحولت تلك الرقة إلى قسوة وصلابة؟!

مدت يدها والتقطت بعض الحبيبات؛ قاسية نعم، ولكنها ناصعة البياض جميلة الملمس. هل تستطيع أن تتقمص هذه الحبة بيضاء القلب وقاسية؟؟ لعلها تتعلم من هذه الحبات كيف تكون الروح متوازنة، أن تنعم مع هذا القلب في الداخل، وتضع القسوة مظهرا خارجيا لتدافع عن كيانها حتى تذوب منسابة تسقي من يحتاجها حقيقة.

شعرت ببرودة الطقس فعادت أدراجها وأغلقت الباب خلفها.

توجهت للهاتف وضغطت الأزرار.

ألو نعم: أعتذر عن المجيء فأنا أحتاج مساحة، أحتاج قلبا وقلما..

سأكتبني، سيكون رسم الحدود عنوان فصلي الأخير.

نسبية المألوف

خرجتُ البارحة لأستطلع المدينة التي جئت إليها ولا أعلم عنها شيئا سوى اسم على الخريطة، فتجولت بجانب شاطئها وجبت شوارعها أبحث عن شيء مألوف؛ فكل شيء غريب بالمحيط. الوجوه المحلات المعالم جميعها. تهت فيها قليلا، ثم علمت أنني لن أجد ما أبحث عنه لأنه في عقلي فقط..

المألوف هو شيء نسبي؛ فالشارع هو الشارع والوجوه هي الوجوه، لكنه مختلف نسبيا لكل شخص. قد يجده غيري مألوفا، أما أنا فشعرت بالغربة ثم عدت لمرحلة تقويم النفس.

إذا كان الهدف من تغيير المكان هو التغيير بحد ذاته لنكتشف نفوسنا في مكان آخر فلماذا نبحث عن المألوف؟؟ فلعل هذا التغيير هو المألوف المراد. في مرحلة قادمة سيصبح مألوفا وما كان مألوفا هو غربتي الحقيقية. كنت أريد من الخروج التحرر من قيودي النفسية.

ثم اكتشفت أن تجولي البسيط أعادني لنفسي أكثر. هناك فقط شعرت أن كل ما أبحث عنه أحمله في داخلي؛ فطالما أنني موجودة

بحقيقتي معي لا يهم أين أكون، المهم ألّا أشعر بغربة في داخلي، هذه الغربة الحقيقية.

أما التغيير الخارجي فهو مجرد إضافة وصقل لحقيقتنا، تُضاف لنا بهما تجارب جديدة، لكن التغيير السلبي هو عندما يدخل التغيير لحقيقتنا فلا نتعرف على وجوهنا نحن.

لا يجدر بنا أن نعبث بمحتوياتنا؛ وإلا كان التيه أبديا بلا عودة.

العيارات الطائشة

قد يصيبنا عيار طائش ويخطئنا هدف مقصود، فنقع صرعى الشكوك والظنون. وبين حسن الظن وسوئه يأخذنا سلوكنا للتروي عن التهور حتى لا نظلِم أو نُظلَم.

وسهام الكلام لا توقعنا، إلا أن نفتح لها صيوان الأذن ومعابر القلب، فتنفذ إلى حيث تقبع فينا أهواؤنا وشطحاتنا.

لعلها توافقت مع ما يسكننا من طباع الشغف والحياة، أو ما ننتظره من همسات مبطنة.

ولعلها تناكرت مع ما يصيبنا من خيبة أمل لا نريد تلقيها، أو مع تفاهات تردُّنا إلى قاع فسد.

لعل الهدف المقصود أخطأنا ليكون عيارا طائشا لغيرنا.

ولعل هذا العيار الطائش قدرنا؛ ليذكرنا ألّا نعطي ظهورنا لمن ضلت ألسنتهم، بلا ترس ولا حماية.

وكنا نحمد الله أن أخطأنا الهدف المقصود.

فقسمتنا في هذه الحياة أن نتلقى ونتعلم مما أصابنا أو أخطأنا. وكله قدر..

فلا يصبْنا الندم لما فعلنا وما لم نفعل.

المهم ألا نعيد الكرة مرات ومرات. نتقبل حياتنا بكل ما فيها من عيارات طائشة، ونتعلم منها بقدر ما تُعلّمنا الأهداف المقصودة.

كله قدر..

تحديات امرأة

«نعم سألتزم» أجابت دون تردد.

أعاد عليها السؤال مرة أخرى: «هل أنتِ واثقة من أنك ستلتزمين بجميع القوانين؟؟ قوانيننا صارمة ومؤهلاتك كافية؛ لكنك امرأة».

«وماذا في ذلك؟» ردت سريعا.

أجابها بصوت متشكك: «الشاغر سيجبرك على جولات ميدانية صباحية ومسائية».

«نعم أفهم كل توابع العمل لديكم، ولكنني واثقة أنني سأقدر على ذلك»، أجابت بنبرة واثقة ولم تُبدِ خوفها الذي كان يتملّكها في الحقيقة.

هل ستوفّق بين مسؤولياتها: عملها، بيتها، وابنها؟ لكنها تفعل هذا لأجله.

وقّعت العقد وفي داخلها صراع، لكنها مضت قدما، ستتخطى كل ذلك.

أدارت وجهها وسارت خارجة من الشركة.

لم تفكر بعد إنجابها لابنها أن تقدم للعمل، ولكن الآن تحديدا يجب أن تتدبر أمرها.

كيف ستبرر هذا لمن حولها؟

سينتقدها الجميع. هل تعود وتمزق العقد؟

ثم عادت بفكرها؛ عندما كانت في ذروة ضعفها بمرحلة من حياتها في محنة عصفت بها، فتخلى أكثرهم بتبريرات واهية، ومن وقف معها أراد الثمن غاليا؛ أرادوا التحكم بحياتها والسيطرة عليها مقابل هذا الدعم. لماذا عليها دائما أن تبرر كل شيء؟؟

وماذا سيحصل؟ كل ما فيها أنهم سيثرثرون ثم سيصمتون ويعتادون.

لكن هي اعتادت الجلوس في المنزل؛ منطقة راحتها ونقطة سلامها. هل تستطيع الخروج من الشرنقة؟ من القوقعة؟

كانت تصحو على فنجان قهوتها وتشاهد برنامجها المفضل.

تتسوق، تقرأ. هل ستمارس هواياتها بعد العمل؟

هل ستتذكر نفسها وتعطيها حقها؟

لا مجال لهذا التفكير الآن، لقد اختارت وعزمت. ولو اختارت الراحة ستعود لنقطة الصفر.

ثم آه، هناك أمر آخر؛ هل تستطيع فرض شخصيتها في عملها؟ بما أن العمل يتطلب أن تقود عدة أشخاص ذكورا وإناثا. لم تكن قائدة

من قبل، كانت تتهرب من هذا الدور، تجد نفسها أقرب للانقياد. هل سيتقبلونها مسؤولة عنهم؟

تخيلت نفسها تعطي أوامر وتوزع الأدوار. ضحكت، أعجبتها الفكرة. لماذا لا تكون؟ ما يمنعها من تغيير دورها من الانقياد للقيادة؟

لا شيء..

ستبدأ بالتغيير من الآن. ستعطي نفسها أوامر تلتزم بها.

ستشارك بقرارات العمارة التي تسكنها، فقد تنازلت عن الخوض فيها لسنين.

ستعترض على أسلوب معلمات ابنها، لطالما لم يعجبها أداؤهن.

وعلى بائع اللحوم الذي يُكثر من وضع الدهون في اللحمة.

وعلى وعلى.. كل شيء سيتغير في حياتها؛ للأفضل.

ستكون جزءا فعالا في هذا المجتمع.

وستكون هذه لحظة التغيير التي تخرجها من هذا القبو.

الحمد لله أنها وقَّعت العقد.

لن تنظر للخلف.. هذا عنوان حياتها القادمة، وبصمة التغيير..

يأسرني

يأسرني الرفق؛ فهذا المعنى الجميل يدخل في كل منحى من مناحي الحياة.

«ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه».

يأسرني الرفق في تعاطينا مع الطفولة.

ترفقنا بطفل لا يدرك من الدنيا إلا لقمته ولعبته، ولا يعلم من القلوب سوى قلب أمه. قد نوبخه على فعل فيعود لنا بعين عاتبة، وينسى مع أول لفتة جميلة كل ما مضى.

يأسرني الرفق بزوجة شاركت زوجها حياة طويلة. أكرمها بالقول والفعل، فرحمها ورفع عنها عبء الحياة بما استطاع إليه سبيلا، وكان أمنها وأمانها، وكان طوق نجاتها.

يأسرني الرفق بإخوة كبروا وتربوا معا، فكانوا العون والمدد لبعضهم عندما تعصف بهم الحياة وتتكالب عليهم الصعاب.

يأسرني الرفق بصديق غالى في عتابنا، فأخذناه بحسن الرد، وربتنا عليه ليطمئن فلا نقطع حبل المودة.

يأسرني الرفق بجارٍ أدار ظهره لنا. بادرَنا بإساءة فبادرْناه بسلام حار نسقط فيه كل ما تضمَّن فعله من جور وحيف. وكلما أمعن أمعنّا بالسلام والتجاوز حتى لا يبقى له حيلة إلا بوصل الود.

يأسرني الرفق بزميل ينافسنا على منصب فلا نبطن له إلا كل خير ونترك العمل بما لا يليق بنا، ليحصل عليه من يستحق.

يأسرني الرفق بعامل نظافة، نمسك عن إلقاء ما بيدنا فلا نضعه إلا بسلة المهملات؛ تخفيفا عليه ومراعاة لواجب أزلناه عن عاتقنا وألقيناه على عاتقه.

معاني الرفق عظيمة لا حصر لها..

وغايتها:

أن نجعل ألسنتنا شفاء لجروح المنكسرين.

أن نربت بيدنا على ظهر من ظن يدنا ستقصد وجهه.

أن نبادر بوصل الأحبة بلا انتظار ما يأتي من طرفهم.

الرفق هو الرحمة والود، والإحسان، والوصل، والتسامح، وهو كل معاني الخير على الإطلاق.

اقلب الصفحة

في طريق عودتها من عملها إلى بيتها وخلال قطعها الشارع للضفة المقابلة، رأت نورا ساطعا لمع في عينيها حتى لم تر أمامها، ثم سمعت صوتا مدويا شعرت أنه سكن عظامها. والغريب أن هذا النور بقي متوهجا وأصبح على مد بصرها، وكأنه طريق ممتد للسماء. لم تدرك ما حصل لها، غير أنها أحست بأنفساها تضيق وتتبخر، نبض قلبها يطرق في أذنيها ضعيفا باهتا. في تلك اللحظة أصبح النور ومضات متلاحقة كأنه ألبوم صور يتحرك أمامها، وبدأت الصور تتوضح. رأت نفسها طفلة تركض في البيت العتيق، تتسلق أدراجه وترسم على الحيطان وصوت أمها يعلو وهي توبخها.

صورة أخرى تومض أمامها وهي في المدرسة تشاغب في الحصة، ترسم على كتابها خطوطا متشابكة، وتتلفت لصديقاتها تقلّد حركات المعلمة، يقاطعها صوت معلمتها تنهرها، فتسكت متبسمة بطرف خفي.

ثم هنا.. آه.. نعم تذكر هذا تماما. كانت في المرحلة الجامعية، عندما قررت وصديقاتها إعداد مشروع تخرج جماعي، وقررت أن

تشارك بلوحة مرسومة، غير أنها أرفقت الرسم بوجه ضاحك، أدى لرسوبهن جميعهن.

لماذا ترى هذه الجزئيات من حياتها؟ ما هذه اليد الخفية التي تقلب صفحات حياتها؟

وها هي ومضة أخرى لأحد أيامها في العمل، رفضت أن تنصاع لأوامر رئيستها، أن تتحمل مهام زميلتها التي غابت لتحضر عرسا، فكتبت شكوى للمدير العام، وتقصدت أن تضع بصمتها المعتادة عليها؛ أسهماً وجهتها لكلماتٍ مختارة من نص الاحتجاج.

نعم لطالما كانت تكره الالتزام بالقوانين، تحاول كسر الأوامر، فتشعر أنها تتحرر من هذا العبء.

ولكنها كانت تنتهج منهجا اعتادته في كل أسلوبها الشقي؛ الرسم.

كانت تتمنى لو انضمّت لصف الرسم، ولم تفعل، خافت أن تتحول هذه الهواية اللطيفة إلى التزام ممل.

كانت ملولة، وهذا ما كان يدفعها لكل تصرفاتها، وكانت تهرب من مللها بكسر هذه القوانين، بحركات كانت تظنها مضحكة أغلب الأحيان.

والآن ماذا يحصل لها؟

أين هي؟

خُيّل لها أنها تسمع أصواتا، صراخا من بعيد.

لعل هذه الصفحات تتقلب لتعذبها وتخلص آثامها بها.

هل ماتت حقيقة؟

هل انتهت حياتها؟

لطالما ظنت أن هناك صفحة تنتظرها لم تحصل بعد، أرادت أن تختم بها حياتها.

أرادت الاعتذار لأمها، لمعلماتها، لزميلاتها، لرئيستها.

والأهم الاعتذار لنفسها؛ فهي لم توفر لنفسها ما كانت ترغبه حقيقة.

لم تنفّذ شيئا من أحلامها.

كان هذا التغيير الحقيقي الذي تمنته، لو اتبعت أحلامها لربما كانت الآن رسامة مشهورة، ولما اضطرت أن تزاول مهنة فُرضت عليها بروتينها الممل.

اقتربت الأصوات وبدت مألوفة أكثر، وشعرت بأيادٍ كثيرة ترفعها، شعرت بضغطة هائلة على صدرها، وضغطات عدة توالت لتشعر بعينيها تنفتحان وترى أمامها عددا كبيرا من الناس ينظرون إليها.

قال أحدهم: حمدا لله على السلامة.

حقًّا؟ هل عادت للحياة؟

إذن هناك فرصة. ستكسر روتينها بدل كسر القوانين.

ستقلب هي الصفحة الآن.

وعندما ترى هذا النور الأبدي سترى صفحات أجمل، وستشكر هذه اليد الخفية التي ستذكرها بأجمل صفحات العمر.

فقط ستقلب الصفحة.

بين موجتين (1)

جرفتها أفكارها وغرقت في خضم مشاعرها. وجدت نفسها أمام شاطئ البحر. وقفت على حافة البحر تتأمله، هل اقتادتها خطواتها قصدا أم سهوا إلى هذا المكان؟ هل جاءت تواجه خوفها أم تهرب منه؟ كانت سابقا تعتقد أن البحر غير آمن، والآن تنشده بحثا عن لحظة أمان في هذه الفوضى العارمة في حياتها. تريد أن تعيد ترتيب ملفاتها. ذكريات مبعثرة هنا وهناك، هنا غضب وألم وهناك فرح وسعادة وبينهما مشاعر مختلطة دفينة. نفضت عن كتفها وشاحها لعلها تنفض معه تعب الماضي وأعباء الحاضر، وفكرت لحظة قبل مد قدمها تتلمس برودة المياه. ترى ما يمنعها لو رمت بكل جسدها وانطلقت داخل أمواج هذا العباب. ألأنها لم تتعلم السباحة؟ وما الفرق؛ فهي لم تتعلم كيف تعيش على هذه الأرض أيضا؟ وها هي في كل صباح تستيقظ لتواجه الحياة بكل صعوباتها. تُرى كيف يكون الاختناق في الماء؟ وهل يختلف عن الاختناق من تحمل أطباع البشر؟ أم حدة أسنان القرش تختلف عن حدة جبروت الإنسان؟ هل تخاف الموت أم الاستمرار في الحياة أكثر؟

هي تقف على الحافة بين البحر واليابسة. ما بين المنطقتين هناك منطقة تسمى الأمل. هنا يبدأ التفاؤل وهنا ينتهي، هنا ترمي كل خوفها وهمومها في البحر. لعله طعم تصطاد به لحظات سعادة. هنا هي ملكة، وصيفاتها نسمات بحر عذبة، وخدامها رمال رطبة. أمسكت حصاة وقذفت بها في الماء. كم هو جميل أن يستوعب البحر أخطاءنا! نرميه بالحصاة فيبتلعها ولا يترك أثرا. لو كانت أخطاؤنا على اليابسة تُبتلَع وتُمحى بلا أثر لكانت الحياة أجمل. وكيف إن كنا قساة مع أنفسنا؟ كيف سيرفق بنا الآخرون؟ كيف وقد تشوهت أرواحنا من آثار حصوات الماضي، وتركت فيها ندبا لا تزول.

وهم الخوف

قفز من نومه فزعا بعدما تراءى له منام ظن لوهلة أنه حقيقة، أخذ يبحث عن ألبوم صوره، تحديدا عن صورته وهو في مقتبل عمر، يوم تخرجه من الجامعة.

كانت رؤيا مزعجة، كأنه عاد فيها لمقاعد الدراسة، وكان يحضر صفا لأستاذ يقدم فيه امتحانا نجا منه بصعوبة بالغة، وكان أستاذه يهدد ويتوعد قائلا:

«لاتحلم أبدا أن ترى يوم تخرجك».

تأكد من صورة التخرج، نظر متأملا فيها وقد عادت به لمخاوف كان قد نسيها، أو هُيئ له ذلك.

استعاذ من الرؤيا وقال: لعلها أضغاث أحلام.

لبس وتأنق ثم خرج لعمله كعادته، دخل مكتبه وحيا زميليه، ثم جلس متهيئا للملفات التي وُضعت بانتظاره، وإذا بشيخ قد أطل وقد تساقط حاجباه على عينيه، يحمل عكازا ويمشي بصعوبة.

ثم ما إن بدأ بالتحدث لهم حتى كاد قلبه ينخلع من ضلوعه، هذا صوت لن ينساه، وكيف ينساه وقد استيقظ على صوته في المنام صباحا؟!

هذا صوت أستاذه..

إلا أنه أصبح أجشَّ تعبا وكأنما خرج من آلة موسيقية قد تقطعت أوتارها.

لم يتمالك خوفه وقد اعتاد أن ترتعد فرائصه عند رؤيته، غير أن خوفه الآن غير مبرر؛ فقد مضت سنون طويلة منذ آخر لقاء به.

أراد هذا الأستاذ إمضاء بعض الورق، وعندما التفت باتجاهه، قام مسلّما ومعرّفا على نفسه.

ويا لدهشته عندما عجز أستاذه عن تذكره!

كيف ذلك؟

ألم يكن هدفا محوريا عنده قبل عشرين عاما؟

هل بالغ حينها في تقدير مخاوفه؟ هل ضخَّم جوانب الحقيقة؟

هو يعلم أنه كان شابا ضيق الأفق، عصبيا طائشا، لكن كان خوفه حقيقيا.

لعله أساء الحكم، إنما هو أستاذ أدى وظيفته كما اقتضت الظروف.

ثم بعد انتهاء العمل ركب سيارته وهو يفكر، ترى كم من مخاوف في الماضي أثرت عليه بلا مغزى فأنهكته وبعثرت مشاعره؟

كم مر عليه أشخاص حفروا به عميقا، أخذوا مدى عظيما من حياته، وكانوا مجرد عقبات تنتهي سريعا.

لا طائل من الندم الآن، تذكر منامه صباحا.

لعله كان عصفا ذهنيا ليتفكر ويقيّم نفسه بعد هذا العمر، ينظف دواخله من أدران قديمة، يخلع جذورها من كيانه حتى تستقيم أدواته.

وليكون الواقع عنوان المستقبل.

سيترك وهم الخوف ويبدأ من جديد.

وعلى أمل تصبحون على خير

كريشة في مهب الريح تعصف بنا الأفكار أول كل صباح، نفتح أعيننا نستذكر ما مر معنا، فتثقلنا هذه الريشة على خفتها وهي تتطاير لتضعنا على محطاتنا المنتظرة، نغمض أعيننا لعلنا ننسى هذه الالتزامات، ولكن لا محالة، فكل شيء بالانتظار؛ نصحو.

نعود بذاكرتنا لبداية العمر عندما كان أكبر همنا أقلامنا الضائعة وواجباتنا المدرسية، كعوالق تلتصق من الماضي.

أما الآن فضياع الوقت هو الهم العظيم، ونتذكر خبراتنا التي كوَّنّاها في حياتنا فنتساءل: هل تكفي لنجتاز كل هذه المحطات بسلامة؟

وهل يكفي ما درسناه وفهمناه لإنجاز التزاماتنا؟

أم ما زال هذا القصور الطفولي الذي نحمله في طيات مشاعرنا؟

ثم ترن بآذاننا أحاسيس المسؤولية، وندفع بصرامة كل ما يعيق قيامنا بواجبنا اليومي. نبدأ بالتحرك على موعد فنجان قهوتنا الصباحي ليشحذ همتنا ونحن نَعِدُ أنفسنا بيوم أفضل. نتمنى أن تصاحبنا بعض المفاجآت السعيدة، ثم تمضي الساعات لندرك أن

مجرد عبور يوم آخر هو إنجاز نشكر أنفسنا عليه حتى لو لم نحقق أمرا عظيما، يكفي أن ننجز وننهي ما بدأناه بجد وجدارة.

وتأتي فترة المساء فنرمي عن عاتقنا ثقل يوم آخر انتهى بحلوه ومره، ندس جسدنا بالسرير وتلك الريشة ما زالت تحوم برأسنا. همسات بغد أفضل مليء بالمفاجآت السعيدة، وعلى أمل تصبحون على خير.

الأسير الحر

أغمض جفنيه خلف هذه القضبان الذهبية وسكنت حركة جناحيه، شعر بالقفص يتحرك يمنة ويسرة، علم أنه حان الرحيل؛ فصاحب القفص دائم السفر ولا بد له أن يرافق صديقه.

لم يتخل يوما عن دوره معه، ليسليه ويزقزق له في الحل والترحال.

لا بأس فصاحب القفص يحبه ويعتني به.

نظر من خلف القضبان، كم مضى من عمره وهو خلفها؟؟ أخرج تنهيدة عفوية عندما حلق أمامه طائر كان يطير عاليا في الفضاء.

خاطب نفسه: بماذا يختلف عني؟ فهو يتنقل فوق المروج وأنا داخل القفص، فقط هو في قفص أوسع، كلانا يرى الحقول والمروج الجميلة.

اقترب منه الطائر قائلا: يا صديقي.. لمَ أنت في قفص؟ لو أرادك الله في قفص لما جعل لك جناحين، فأجابه الطائر الأسير: لم تتح لي الفرصة، وجدت نفسي مع صاحبي وأنا خلف القضبان، وقد رضيت وهذا قدري، ثم إنه يعتني بي ويضع لي الطعام ويحميني. ضحك الطائر متعجبا وقال: لو ذقت رحيق الزهور لما رضيت بفتات الخبز،

ولـو تمتعـت بالحريـة لمـا قنعـت بالأسـر، هنـاك يـا صـديقي خلـف المروج جبال ووديان، تحلق هنا وتهبط هناك، تباغتك الصقور عاليا وفي الأسفل الجرذان، ولكننا نواجهها بمهارة وخبرة، ونحن في سربنا نهاجر ثم نعود للأوطان.

فمتى كان القفص وطنا؟؟ ومتى كانت القضبان أهلا؟؟ خلِّ عنك يا صديقي أحلام اليقظة وابدأ كسر قيودك، سأعلمك أول درس في الحرية: إن الخوف عادة. وإن الحر لا تروضه الحاجة.

ستجد جناحك ضعيفا من قلة الاستخدام، لكن حرّكه بقوة، ستطير، وتدمن الطيران.

قنع الأسير بالكلام، ومد منقاره ورفع الزمام، فك السلسلة وخرج، ما لبث أن وقع، تذكر النصيحة وحرك جناحيه بقوة وارتفع.

وبدأ الحياة.

هل ضاعت حياته في الماضي سدى؟

كلا فهو على موعد مع الحرية في هذا الزمان والمكان. شكر صديقه وحلَّق عاليا، كان الهواء في القفص ساكنا.

أما هنا فنسيم الحرية. لن يلوم صاحب القفص، كان خياره أن يعيش جبانا؛ فلو رغب حقا في الطيران، ما وقفت في وجهه تلك- القضبان.

العيوب المموهة

لإخفاء عيوبنا نحتاج لاحتراف من نوع آخر؛ فلا نحتاج لرقعة نرقعها بها، بل نحتاج إزالتها من أساسها، وإلا فالتعايش مع وجود هذا العيب أفضل من رقعه.

كلوحة فنان يحدث بها خطأ فيخفيه بضربة ريشة ليظهر باديا للعيان، أو كشرخ في جدار فنخفيه بقطعة بغير مكانها، أو كتعليق يوضع تحت صورة نخفيه فيظهر المكان وتختفي التفاصيل وما زال المكان موجودا.

كضحكة نخفي بها ألما فتظهر مشوهة.. صفراء.

عيوبنا تحتاج لصقل، فالاعتراف بالذنب فضيلة. وما يجعلنا نلجأ لضربة ريشة؟

ظننا أننا لوحة متكاملة ملائكية وننسى أن الملائكة مكانهم في السماء وليس على الأرض. الملائكة لا يخطئون ولا يخفون عيوبهم. أما نحن فلا عصمة إلا لنبي، وننسى أن بشريتنا هي ما يميزنا؛ فإن لم نكن بشرا لن نكون ملائكة، ولكن قد نندرج تحت فصائل أخرى. ولو كثرت عيوبنا لا نحتاج إلا لاعتراف داخلي؛ لأن إشكالنا الداخلي مع أنفسنا سيرتقي بنا إن واجهناه، إن سويناه.

جمالنا أن نكـون نحـن؛ بـلا رقعـة ولا ضـربة. أن نكـون حقيقيـين؛ بشرا بشروخنا وأخطائنا، بعفويتنا وزلاتنا، نصقلها ولا نرقعها.

ولو كانت رقعا من ذهب.

كف الأمل

هناك في زاوية المطعم، أمسكتُ كفَّها بلطف ونظرت عميقا وكأنما خطوط يدها تكاثفت حتى أصبحت غابة تضيع فيها العيون، وسألتها: «كم لك وأنت تسعين لهذا الهدف؟ أراه هنا بوضوح. شغلَكِ حتى تاهت خطواتك وتعثرت».

تنفست الصعداء وسرحت بخيالها، تذكرت هذا الهدف الذي شغلها. نعم؛ لقد سعت وتشبثت بالأمل طويلا لعله يتحقق، لكنها بدأت تيأس، ما عاد قلبها يتحمل هذا العناء غير المجدي، ثم سألت عرافتها: «هل هناك أمل؟»، لتجيبها: «دائما هناك أمل طالما نتبع الأسلوب الصحيح بالحصول عليه، أنت تجاهدين حقا ولكنك ساكنة في مكانك، لن تحصلي على أمنيتك وأنت تتشبثين بها. عليك أن تسيري معها جنبا إلى جنب.. تحلّقين معها..

ينقصك الخيال يا عزيزتي؛ فماذا تتوقعين من أمنية تقبع في كهف مظلم.. في صندوق أسود. دعي النور يدخل لتنمو أمنيتك وتتفتح، هنا فقط ستتحقق، ستعلين بها ومعها، ستفرحين عند حصولها ناضجة مفعمة بالحياة. لن يفيد بكاؤك ولا نحيبك؛ فلن يجلب

بؤسك سوى التعاسة، واعلمي أن قوتك باستمرارك، بمضيّك للأمام.. أما الوقوف في مكاننا فهو نقصان».

نظرت لعرافتها باستغراب وقالت: «ما أسهل الكلام لمن لا يعلم حقيقة الألم!».

توقفت العرافة عن الكلام ووقفت. قالت وهي تسير ولا تنظر خلفها: «الألم صفة بشرية، لكننا نتميز عندما لا نجعله عنوان حياتنا وصبغة أرواحنا، وإلا سنحترق به ونفنى بلا نتيجة».

شعرتْ بالحيرة، سألت نفسها: «ثم ماذا؟». هي اعتادت أن تتعلم من تجاربها الخاصة.

هل تتبع النصيحة أم تتشبث؟ هل تترك أمنيتها تضيع؟ أم ستضيع حقا إن تشبثت بها.

خرجت وهي لا تعلم الإجابة، لكنها تعلم أمرا واحدا؛ أنها تريد الاستمرار بالأمل.

بساط الريح

في صباح يوم مشمس جميل استيقظ معين مفعم بالنشاط، يشغله هذا الحدث العظيم، استعد، لبس، ثم وقف أمام المرآة، ينظر لنفسه، هل يستحق فعلا أن يشهد هذا التكريم؟ هو كان يطلب شيئا في السابق يغير من حاله، كان يريد حدثا يبعث فيه الهمة، توقف عن التفكير وخرج مسرعا من بيته نحو المرجة الخضراء حيث الموعد في تمام العاشرة صباحا. ظن أنه أول الواصلين، لكنه تفاجأ بالحشد العظيم الذي سبقه، تدافع الجميع، ويأمل كلٌّ منهم أن يكون أول الصاعدين، وخلال دقائق معدودة كانت الحشود المتدافعة في وسط المرجة.

بدا المنظر مهيبا من بعيد، كانت تراودهم الشكوك حول صدق الإعلان الذي تردَّد على أسماعهم منذ أيام.

بدأ الشك يتلاشى حينما وقعت أنظارهم على هذا البساط الضخم الماثل أمامهم، هو بساط الريح لا شك.

قبل أسبوعين تم الإعلان عن اكتشاف بساط الريح، مع تنويه بأنهم سيقومون بتنظيم رحلة مجانية حول العالم لمن سيقع عليهم

الاختيار، وأن على الجميع الحضور في الموعد والمكان المحددين ليكونوا ضمن شريحة المرشحين.

في تمام العاشرة أطل عليهم المسؤول عن التنظيم وأشار للجميع أن يصطفوا بنظام وإلا تأجلت الرحلة.

وأخبرهم أنه سينتقي منهم عشوائيا، فانصاع الحشد واصطفوا.

كم هو محظوظ من سيقع عليه الاختيار!

بدأ المسؤول بالاختيار، وقد تقصد أن يكونوا متنوعين من كل الفئات: أطفال وشباب وشيوخ، رجال ونساء، أغنياء وفقراء، فهذا إرث تاريخي، وعلى جميع الفئات المشاركة فيه بما لا يزيد على خمسين شخصا.

وكان على كل من يقع عليه الاختيار التقدم للأمام، قبل أن يقوم المساعد بوضعهم في المكان المناسب على البساط. وجاء اسم معين في وسط المختارين، أخيرا، كانت الفرحة لا تسعه، ركض باتجاه البساط، ووُضع في الدائرة المتطرفة قرب الحافة، وكان سعيدا لأنه سيرى كل شيء بشكل أوضح. بعد فترة وجيزة كان المسؤول قد أتم المهمة، وكل من لم يكن ضمن الصاعدين أصيب بحسرة شديدة، لكنَّ عزاءهم كان أنهم سيشهدون هذا الحدث التاريخي،

يكفي أنهم قد تمكنوا من رؤية ما ظنوه في السابق أسطورة تُحكى لهم في الروايات.

وبالفعل صعدوا وأخذ كلٌّ مكانه تحت نظر المراقبين من الجمهور الحاشد.

وُضع الأطفال في الداخل في الحلقة الأولى مع أمهاتهم، ثم الشيوخ من الرجال والنساء في الحلقة الأوسط، ثم الشباب في أوسع حلقة لأنهم الأقوى على تحمُّل ضغط الهواء.

وكان العدد محدودا ليتاح للجميع رؤية ما يحلق فوقه البساط، لكنهم لم يُفصلوا إلا بحسب الطبقة العمرية، وليس بحسب الطبقة الاجتماعية. وكان ضمن الطبقة المرفهة أختان صعدتا وصُنِّفتا بحسب الفئة العمرية الكبيرة؛ أي الذين جلسوا في الحلقة الوسطى.

وكان أنهما انزعجتا لخلطهما مع الطبقات الاجتماعية الأخرى وتململتا، حاولتا الاعتراض، ولكن المسؤول أجابهما أن ما سيرونه خلال الرحلة كفيل أن ينسيهما هذا الفارق، وهي فرصة يتساوى بها الجميع، وأخبرهما أن بإمكانهما النزول لاختيار غيرهما، فاضطرتا للسكوت على مضض.

وقف المسؤول ليؤكد أن هذه الرحلة متفردة وقيّمة، وأن هذا البساط سيوضع في المتحف بعد العودة، وأن على الجميع الاستفادة

والتمتع أيضا قدر المستطاع، ونصحهم أن يقتربوا من بعضهم بعضًا حتى لا يشعروا بالبرد الشديد، ثم وزعوا عليهم سترات خاصة لتحمُّل برودة الجو في الأعلى.

كان الجميع في غاية السعادة لهذه الفرصة، إلا الأختين، تكرر انزعاجهما من توزيع السترة نفسها للجميع، وفضَّلتا التحدث عن ذلك بينهما حتى لا ينزلهما المسؤول.

ثم سكت الجميع عندما بدأ المسؤول بتحريك مقدمة البساط بشكل عامودي وبحركة سريعة، وهو ما وجدوه مع البساط مكتوبا على ورقة بداخلها بيان كيفية ارتفاعه وهبوطه والتحكم بحركته، ثم شعروا جميعا ببدأ ارتفاع البساط تدريجيا.

كان التعبير الوحيد الذي ظهر على وجوههم هو الدهشة، أخذوا يتلفتون حولهم وهم يبتعدون تدريجيا عن الأرض، بدأت الأشياء تصغر كلما ارتفع البساط: البيوت والحدائق والشوارع، إلى أن اختفت معالم مدينتهم، كان المقرر أن يزوروا بعض الآثار من الحضارات القديمة، وبعض المدن المشهورة، والأماكن الطبيعية الخلابة.

حينما كانوا يمرون على أمور تستحق المشاهدة ينبههم المسؤول للنظر والاستماع لشرح المرشد.

أما الأطفال فكانت الأمهات يحاولن الشرح لهم، والشباب اعتبروها لحظات عابرة من المتعة إلا بعضهم، أحدهم كان معه قلم وورق يدوّن عليه الملاحظات، وآخر معه كاميرا ليلتقط أجمل اللقطات ليريها لأقرانه عند العودة، وهناك من حمل دفتر رسم ليشخّص ما مر أمامه، واحد فقط اختلفت تعبيراته، كان صامتا وهادئا ويظهر عليه التفكر والتدبر، هو معين.

أما فئة كبار العمر، فكانت الأختان عادتا لحركاتهما، تنتقدان هذا وذاك، لم تتجاوزا أي أمر دون عمل بلبلة، هذا ماذا يلبس وهذا كيف يجلس، حتى خيوط البساط العتيقة لم تسلم من نقدهما، وتجرأت إحداهما لتذكر كيف عليهم تنظيف البساط العتيق ليعود له بريقه ولمعانه. يا الله كم هما مزعجتان! هذا ما كان يجول في بال المحيطين ممن لم يتجرؤوا على النطق حتى لا يتحملوا سلاطة لسانهما.

مرَّ على بداية الرحلة يومان، وعندما يحين وقت النوم يتوقف المسؤول ليعلن أنهم سيتوقفون عن الحركة للمبيت، ويأخذ الجميع أغطية تحميهم من البرد.

خلالها خرج صوت اعتادوا عليه جميعا يقول:

«أيها المسؤول هذا غطاء بسيط لا يليق بمكانتي، لقد اعتدتُ الفراش الوثير، ألا تعلم من أنا؟؟ أعطني غير هذا الغطاء».

وكلما سمع المسؤول صوت إحدى الأختين سدَّ أذنيه ولم يعرهما الاهتمام، إلى أن تقنعا بأن لا جدوى من كثرة تطلبهما.

بدأ المحيطون بالأختين المتباهيتين بالامتعاض، لم يسنح لهم أن يسمعوا المرشد الذي كان يشرح عن المناطق التي يمرون بها، وعلموا لاحقا أنهم اجتازوا برج إيفل في باريس، وبرج بيزا المائل في إيطاليا، والمناظر الطبيعية الخلابة في أوروبا. وكلما التفتوا لينظروا ويسمعوا تبدأ الأختان بعمل بلبلة، والبعض منهم بدا عليه الإحراج لبساطة لباسه عند كل نظرة ازدراء تطلقها إحدى الأختين. بدؤوا بتغطية لباسهم وحاولوا كسب ودهما، إلا معين فلم يشد انتباهه شيء من كل الأصوات، إلا ما كان يرى، كان ينظر ويتفكر في خلق الله، سبحانك ما خلقت هذا باطلا، وكلما رأى مشهدا كان يربطه بالأحداث التي تعلمها فيتذكرها، وينظر: هنا حصل كذا وكذا، وكان يستفيد من شرح المرشد ليتذكر بعض ما نسي.

لاحقا في الأيام التالية مروا على عجائب الدنيا السبع القديمة في مصر وبابل واليونان وتركيا؛ الهرم الأكبر ومنارة الإسكندرية في مصر، والحدائق المعلقة في بابل، وهيكل أرتميس وضريح

موسـولوس في تركيـا، وتمثـال زيـوس ورودس في اليونـان، وكـان المرشد قد تحدث عن تاريخ كلٍّ منها.

وكلما عبروا فوق معلم طبيعي شرح عنه، البحيرات السبع، جبال الهمالايا، جبال الألب..

وعبروا فوق سور الصين العظيم، ونال نصيبا من الشرح أيضا.

وكانت فئة الشباب ما زالت تستمتع بلا إدراك لقيمة ما مروا عليه إلا الشاب معين المتفكر الذي سمع وحفظ كل شيء.

وكانـت الأمهـات تحـاول الشـرح لأبنـائهن، وهـن خـلال ذلـك يطعمنهم ويسقينهم ويتحملن صراخهم، ففوتن كثيرا من الشرح، وهن يعلمن أبناءهن قيمة الرحلة.

أمـا كبـار العمـر فـأدرك العديـد مـنهم أخيـرا أنهـم لـن يفلحـوا إلا بإهمالهم الأختين وعدم الاستماع لشكواهما وانتقاداتهمـا، فطلبـوا من المرشد أن يستخدم سماعة بصوت عال ليطغى على صوتيهما.

التفَّ حول الأختين بعض ضعاف النفس وأمضوا الرحلة وهـم في نفاق، والباقي تقدَّموا للأمام قليلا ليستمعوا، فأدركوا نصف الرحلة.

بعـد عشـرة أيـام وقبيـل انتهـاء الرحلـة شـكر المسـؤول والمسـاعد والمرشـد الجميـع، قـالوا إن الرحلـة بلغـت نهايتهـا وإنهـم سـيعودون الآن؛ خلال يوم وليلة سيكونون في الديار. جفل الجميع لهذا الخبر،

حاولوا تذكر الأيام العشرة. كانت سريعة جدا فلم يشعروا بها، كيف انتهت فجأة؟ إلا معين الذي كان مرتاحا لأنه لم يدع شيئا يفوته أبدا، كل الرحلة كانت في ذاكرته.

وبالفعل بعد يوم وليلة، حط بساط الريح في وسط المرجة الخضراء، وكانت الحشود في استقبالهم، بدأ الركاب في النزول، ووقفوا جميعا أمام البساط. حيا المسؤول الجميع، وأعلن أن من استطاع من الركاب أن يقص هذه الرحلة للحشد بالتفصيل سيتسلم أكبر جائزة ويأخذ وساما شرفيا، وسيأخذ البقية هدايا على قدر مساهمتهم بإيصال المعلومات.

واصطفَّ الجميع بالترتيب بحسب معلوماتهم، فكان الشاب معين المتفكر هو الوحيد الذي استطاع وصف الرحلة بكاملها وصفا دقيقا، أما كبار السن فبعضهم استطاع وصف نصف الرحلة، أما الأختان فكان ترتيبهما في آخر الصفوف وقد أصابهما الخزي أمام الحشود من مرتبتهما البعيدة، وكان معهما المنافقون يقفون بعتب؛ لأنهم أضاعوا الرحلة ينافقون لكسب رضاهما.

تسلم معين الجائزة؛ وهي منحة مالية كبيرة، مع درع تقديرا له، ثم البقية تسلموا على قدر معلوماتهم. أما من لم يصف شيئا فقد تقرر

تجريدهم من مزاياهم الاجتماعية، لأنهم حرموا آخرين من هذه القيمة ولم يستفيدوا منها.

تقدمت الأختان على أمل الحصول على شيء، لكن بدل الهدية اقتادوهما إلى حجر اجتماعي، لأنهما صُنِّفتا مشاغبتَين منعتا مسير الرحلة بشكل حضاري.

أما معين فكانت جائزته الحقيقية هي المشاركة بحد ذاتها، فقرر أن يعيد صياغة حياته لأن كل لحظة في هذه الحياة هي حدث وهو تكريم، فهذه الحياة هي بساط ريح أكبر وأعظم، ولن يفرّط في وقته عليها، ونيله ثمار تعبه هو الوسام الذي يستحقه.

كانت هذه الرحلة البداية عند البعض وكانت نهاية آخرين لم يعرفوا قيمتها ويقدروها حقا، كما هي حياتنا على هذه الأرض قصيرة، فلا ننسَ. فلنعمل بجد؛ نزرع لنحصد.

شموخ وردة

نزلت إلى الحديقة لتسقي ورودها، هالها ما رأت..

تفتحت كل الورود إلا الحمراء، لقد نضبت الحياة فيها وذبلت أوراقها.

غريب. كيف تفتحت الألوان كلها الصفراء والبيضاء والبنفسجية، إلا الحمراء؟ أمن الممكن لأنها سقتها بدموعها؟

كانت تحرص كل يوم على أن تنزل وتفرج عن مكنونها عند هذه الشجرة خصيصا؛ ربما لأن اللون الأحمر يذكرها بقلبها الدامي. ذبل الورد الأحمر كما ذبل قلبها ونضب.

أهملت ورودها كما أهملت قلبها دون قصد، كانت تظن الرعاية أن تسقيه من روحها، وكان كيانها السقاء، إلى أن نضب وخفت ضوؤه.

وكيف لكيان أن يعيش بلا سعادة؟! وكيف لقلبها أن يسمو بها فوق الأحزان وهي تذكّره كل يوم بماضيها الحزين؟!

غادرتها البسمة منذ زمن واستبدلتها بها الأنين وشهقات اغتالت نفَسها.

وجدت راحتها برعاية ورودها؛ تشذبها وتقلمها وتنظف تربتها من الأعشاب الضارة وتسقيها، ثم تجلس عند الوردة الحمراء تفضفض لها وتحادثها.

لعل الورود كانت تعسة من حديث صديقتها فما لبثت أن فارقت الحياة.

هذه الورود عندها الشجاعة التي فارقتها واجهت مصيرها شامخة رأسها، ولم تنحن.

هل قتلت صديقتها بحديثها؟ كانت تحبها وترتاح بجانبها وتضُّمها براحتيها. وكانت وردتها تستمع لحكاياتها دون تذمر.

لكنها بدل أن تستمتع بوردتها وجمالها، كانت تشكو لها كلما رأتها.

فلم تحتمل أن تستوعب كل هذه المعاناة؛ لم تُخلَق لذلك.

بل لتمنحنا الجمال والرائحة العطرة.

يا لخجلها من ورودها! كم كانت أنانية! فكرت بنفسها ولم تهتم لما تحسُّ به ورودها.

ثم فجأة هُيئ لها أنها سمعت همسا؛ إنها وردة بها بقايا حياة. تقول لها: هوني عليك، فإنما انتهت أيامنا يا صديقتي، وأنت عليك ان تدركي العبرة..

إن عليها أن تواجه دنياها كهذه الوردة الشجاعة؛ إما أن تبقى لتمنح جمالا لكونها أو ترحل بصمت.

عليها أن ترفع رأسها ولا تستسلم لشجون قلبها.

لا بأس إذن، ستعيد زراعة الشجرة الحمراء وسترعاها بحق بصمت وحنان، وستكون نعم الصديقة لورودها وحديقتها، ولقلبها أيضا؛ لأن الحب هو العطاء أو الرحيل بصمت.

راضية مرضية

بمعزل عن كل النوايا الصاخبة في داخلنا، تتسلل هناك دائما نية تهمّش الأخريات وتتفوق عليهن، تبدأ دائما بحلم يقظة أشبه برؤية.

ثم تصبح فكرة، تطرح نفسها بمسوغات تتخلل أحداث يومنا فتأخذ مكانا على أرض الواقع وتفرض نفسها بين بقية الأفكار.

ثم ما تلبث أن تتربع على العرش لتصبح شغلنا الشاغل، وتكون محور الحياة وقوامها، رغم أنها لم في يكن لها في السابق معنى؛ كعشبة تنبت في الأرض فجأة.

ثم يولد القرار، قد يكون فرصة حياة أو نهاية مصير.

بناء على نظرة أو كلمة نقرر أن نقول أو نفعل أو نمنع حدوث شيء.

نـنغمس في هذا القرار فنصالح ونحارب لأجله، ونرفع ونحط لأجله، ونقرر أن نغّير هذه المحيط لصالحنا.

ولربما كان الفتيل لهذه النية نفسا غير قانعة، أو حلما قديما لم يجد صدى في حياتنا السابقة.

ولربما كان خرابا في اللاوعي يريد تحطيم كل شيء، فيورث أهدافا دفينة.

ومن الممكن أيضا أن تكون نبتة صالحة نمت وتريد تحطيم الظلم وقيود الفشل، تريد أن ترى النور حولها بعد ضجيج الجهل وعفونة التخلف.

ربما كانت صحوة بعد سبات طويل.

ولا أحد يقرر عن الأخر منبت هذه النية إلا من داخلنا نحن ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة (14) ولو ألقى معاذيره﴾.

هناك في الداخل علينا أن نبحث في الأسباب والمسببات لنفهم ونعرف منبت النوايا ولا ننغر بظاهرنا، حتى النفس لا تعلم دواخلها إلا بعد صراع طويل مع نوازعها، وبعد تجارب وسلوكات.

قد نتفاجأ بما نكتشف وما تنبئنا به أنفسنا، فلربما النية الصالحة منبتها سيئ، ولربما السيئة منبتها صالح.

قبل أن نثور على غيرنا قد يلزمنا أن نثور على أنفسنا، وقبل أن نتأثر بكلمة أو نظرة من الآخرين، قد يلزمنا أن نوجه نظرنا نحن إلى الداخل، عندها قد تؤلمنا هذه النظرة أكثر من ألم نظرات الآخرين، فنقرر توبيخها وإيقاظها، هنا سيكون التغيير له قيمة أجمل وأغلى، عندها سنرضى، سنعذر، سنهدأ، ستسكن نوايانا، وتطمئن نفوسنا.

على نقرات التانغو

جلس زوجها على الكنبة عائدا من عمله.

كان يهمُّ بالذهاب للنوم عندما قررت ألا تطوي هذه الليلة قبل أن تفرغ مكنونات قلبها. لكن كيف ستخبره؟ تذكرت خلافات الليلة الماضية والتي قبلها، بل خلافات كل ليلة. أخيرا تمكنت من أخذ قرار، وهو الرحيل. هل سيدعها تذهب هكذا بلا عناء؟ هل سيكون هادئا؟ أم ستتحمل صياحه لليلة أخرى؟ آه كم اشتاقت للهدوء!

ثم فجأة نهضت وقالت له: «عزيزي لماذا لا نرقص التانغو؟

هيا سنختم بها هذه الليلة».

نظر متعجبا: «ماذا؟».

قالت: «لقد اشتقت أن أرقصها، هيا لن أتعبك، سأكون بطيئة لأواكب حركتك».

ثم بعد جهد قام. حركت الموسيقى فمد يده والتقط يدها.

قالت: «يا عزيزي هكذا بدأت حياتنا عندما طلبتَ يدي من والدي»، فضحك ولم يدرك مغزى الكلام عندها.

ثم انتقل للحركة الأخرى واقترب منها وشدها لصدره. قالت: «وهكذا كنا في بداية حياتنا بهذا القرب، كانت حياتنا لوحة رومنسية جميلة».

تعمَّق بوجهها متذكرا الماضي، ثم انتقل للحركة التالية ليبتعد قليلا قليلا، وظل ممسكا يدها.

فقالت: «أما الآن فهذه حياتنا، إنما هو ارتباط ظاهر، هاتان اليدان المتماسكتان هما آخر المطاف قبل الافتراق».

فهم ما تريد؛ إذ إن الحركة التالية كانت الابتعاد والدوران بعيدا. لكنه ظل ممسكا يدها. حاولت أن تفلت يدها فلم تستطع.

قال: «يا عزيزتي كنت دائما أعوّل على قوّة تحملك، وكم كنتِ سندا لهذا البيت! كنت أنا من أتفلت، وكنتِ أنتِ من يشد على يدي. هل تظنين أنني سأدعك الآن تفلتين من يدي؟ حان دوري الآن. سأتمسك بك ولن أدعك تهربين».

أجابت: «لكن أنا تعبت من الجدال والكلام والثرثرة، والأكثر من صياحك». فشدها مرة أخرى لقلبه قائلا: «لو بقينا بهذا القرب لن ندرك قيمته، إنما الحياة مد وجزر، فسحات على فترات»، ثم أبعدها قليلا لتدور ثم قرَّبها.

«هذه الفسحة لندرك ما فقدنا. لا بد أنني تغيرت مع هـذه السـنين. كم روضتِني وقد كنت أهـوجَ، والآن هـي بعـض تنفيسـات تخبـو كـل يوم.

تأكدي، سيأتي يوم لن تسمعي فيه صوتي. سنكون رحلنـا عـن هـذه الحياة، لكن أفضّل أن يأتي وأنا بجانبك».

ما لبثت أن امتلأ وجهها بالدموع. حقا هي لا تريـد الافـتراق. إنمـا تحتاج بعض الفسحة.

بين موجتين (2)

اعترف أني ما زلت أتعلم ولم أبلغ قطرة في فيضان الدنيا المائج، بل حتى لم أبلغ مدارك نفسي. ما زلت أحاول سبر أغوارها.

من أنا؟ لماذا أنا؟ متى وأين وكيف ينتهي العبء وأدرك سلامي الداخلي؟

هل أنتظر النهاية؟

أم سأستسلم وأرمي أحمالي وأهرب؟

وكأني أسبح في محيط ماء عظيم، وأتحرك مع التيار تارة وضده تارة أخرى، وفوقي أحمال ثقيلة أعجز عن تركها.

أبحث عن بحر أو بحيرة أو ميناء لأرسو وأضع أثقالي.

ولكن، ولا مرة نظرت للأسفل نحو العمق.. نحو النهاية.

هذا الخوف الذي يقيدني، خوف من نهاية الأعماق.

لا أعلم هل هي عميقة حقا؟ أم ضحلة؟

أم أن النهاية مجرد هاجس يدفعني أن أبقي نفسي في المكان الأقرب للبر؟

تعلمت أن أستمر في السباحة في كل حال؛ أن أبتعد عن الأمواج العالية حتى لا تقذفني حيث لا أدري، فقد لا أتمكن من العودة.

وكلما تفاديت موجة فرحت وتفاخرت، ثم أدرك أن اعتلاء الموجة هو الأصعب وليس تفاديها.

وتذكرت ضعفي وقلة حيلتي. لا بأس طالما ما زال لديَّ بعض الجلد. قد أتمكن يوما من اعتلاء موجة، كل ما يهم هو أنني أستطيع التعلم. المهم أن أستمر في الحركة.

وكلما داخلني يأس وفكرت في التوقف، تذكرت خوفي من الأعماق، فالتوقف يعني الغوص نحو العمق، نحو اللانهاية أو النهاية لا أعلم.

وفي هذا الحوض العظيم أنهار تصبُّ في المجهول. وكما ابتعدت عن الموجات العالية، وكما امتنعت عن النظر إلى الأعماق، تفوقت في الابتعاد عن هذه المصبات.

لعلي أرسو على شاطئ الأمان في يوم.

كيف يكون وضع الأثقال وكيف يكون عدم الشعور بالأعباء؟

سأستمر في ترديد بعض الأقاويل لنفسي. إنني سأبلغ البر يوما وفي يدي أحمالي التي كانت دافعي للصمود. سأضعها وأستقر على الرمال الجافة، كما حملتني محيطات نفسي سيحملني بر الأمان يوما لألقي بظهري عليه وعيوني ترمق الفضاء الرحب. لن أضيق رحبا، فكل ما على الأرض واسع كما خلقه الله لنا. سمائي على مد البصر.

هـذه حـدودي وهـذا هـو إدراكـي. سـأتفادى الحفـر كمـا تفاديـت الموجات العالية.

سأبدأ هناك.

ولن أخاف النظر للأسفل أو للأعلى.. إلى النهاية أو اللانهاية..

سلامنا الداخلي

عند تسليم قلوبنا وعقولنا لمن لا يستحقونها، من الطبيعي أن يكون أول رد فعل لهم تشكيكهم بقدراتنا العقلية والنفسية؛ باعتبار أننا أسأنا أصلا بوضعهم بغير مكانهم. هذا يجعلنا نصب مرارتنا على نفوسنا مبدئيا ونشكك قليلا بقدراتنا لما آلت إليه أحوالنا. وتضرم قلوبنا بنار الأسف، ثم نملي التفكير ونوزن صياغة ما مضى.

نعود لِتسلّم زمام أمورنا ونقود دفتنا باتجاه أماننا العقلي والنفسي، فنحمد الله أن لنا من الله رفعة بعد سقطة، تزيدنا عبرة وحكمة، وأنه خلقنا من صلصال يعاد تشكيله ويحتاج إلى نفحة نار لصقله؛ فإما أن نضعف ونتركه كومة طين لا شكل له ولا قيمة، وإما أن نتحمل فنلمع ونكون نموذجا يرضينا أولا، لنجد بردنا وسلامنا في هذه النار.

﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾.

البيوت الدافئة

بجانب مدفأة الحطب، وضعَتْ كومة من الكتب تنوي قراءتها.

تصفحَتْ بعض الصفحات من كل كتاب لتقرر أي واحد ستنتقيه، على فترة من انقطاع عن القراءة وتجنيد الأفكار. اشتاقت للحظات كان إنهاء كتاب غاية في الغبطة والسرور، لتخرج من كل كتاب بخلاصة تبني عليها مبادئ تصوغها، فتمدها بإكسير الحياة.

على مضض اختارت كتابا وشرعت بقراءته، كان يتحدث عن البيوت الدافئة، عن العلاقات الأسرية المتينة. نظرت إلى النار المتوهجة من المدفأة لتستشعر معنى الدفء، حتى لو كان دفئا جسديا فقط لم يستشعره قلبها من الداخل، لا بد أنها اختارت هذا الكتاب تخصيصا لتستمد منه بعض معاني دفء العلاقات، فهذا ما تريد أن تحسَّه، وأن تشعر به.

هكذا بدأ الكتاب بجملة لطيفة تعبر عن فحواه: «حنونة يد القدر، تُربِّتُ علينا، تهدئ روعنا بعد موجات من الحزن، تدفعنا لنستجمع قوانا».

هل يشرح الكتاب كيف نستجمع قوانا فعلا أم أنها مجرد مقدمة عشوائية لا يقصد الكاتب الإبحار بها؟ هل قوانا المبعثرة نستجمعها

بمجرد قراءة خطوات من كتاب؟ لعل الكاتب له تجربة خاصة بهذا الموضوع، يريد نقلها وإفادة غيره، لا بأس. على الأقل هي تعلم أن هذا مطلب الكثيرين غيرها، ليست وحدها من خارت قواه وتبعثرت.

أكملت القراءة لتصل إلى نقطة استوقفتها تتحدث عن السيطرة على الأفكار، وأن «أول خطوة في الاتجاه الصحيح هي ضبط أفكارنا، ولجمها حتى لا تشطح بنا فتقودنا إلى الهاوية». شبَّهَ أفكارنا بحصان جامح، تابعت: «إما أن نمسك الحبل ونوجّه مسارنا وإما أن نتركه على غاربه فيوقعنا في وديان الندامة، فنقع ونصاب بالشلل. طالما نحن فوق الحصان لم يفت الأوان بعد، لعلنا نشطح لفترة من الزمن فندخل أراضيَ غير أراضينا، نتعدى بعض الحدود التي رُسمت لنا، نقفز فوق أسيجة بالغة الارتفاع فنشعر بالنشوة من المغامرة، لكن لا بد أن نتوقف في النهاية ونعيد الأمور لنصابها».

إذن هو يعتبر أن لا بأس بفترة جامحة، فلكل جواد كبوة، على ألا تستمر طويلا، أشعرها هذا بالرضا، هناك فسحة يحتاجها كل إنسان يتمرد بها على نفسه قليلا بلا مبالغة، يغير نظامه وروتينه، ثم يعود فيملك حبل أفكاره من جديد.

عادت لنفسها قليلا، وبدا الارتباك على ملامحها، هل تمادت في تمردها على نفسها؟ هل ما زالت في خط الأمان أم أنها سقطت في

هذه الوديان التي يتحدث عنها؟ هي تركت نفسها طويلا تعصف بها المشاعر؟ لكنَّ لنفسها حقًّا عليها؛ أن تتوقف وتدفع بها للأمام، أن تخوض تجارب عديدة لتعيدها لمصاف الأسوياء.

كانت الأيام والشهور الماضية حالة من الفوضى عبثت بكل حياتها، نظامها، روتينها، سكينتها. والآن تحتاج أن تسيطر مرة أخرى على نفسها، تحتاج هذا الدفء الجميل يتسلل إلى حنايا روحها. فاضت عيونها وسكبت دموعا حارة نفَّست بها عن كدر مكبوت طويلا، كفكفت دموعها وهدأت من روعها، تمالكت نفسها وعادت للكتاب، الفصول الباقية تحدث بها عن أهمية التنفس وعن أهمية الفضفضة وإخراج المشاعر عن طريق كتابتها أو التحدث بها لصديق، وما أحبته حقيقة كان الصور التي وفَّرها الكتاب والتي توحي بالأمل، تعكس على النفس صفاء روحيا. وكانت التغذية الراجعة هي الخلاصة؛ أن من أراد المضي قدما في حياته عليه أن يجعل نفسه أولويته الأولى، عليه أن يتحلى ببعض الأنانية ولا يضعها في الصفوف المتأخرة، أو بيد من لا يثق بهم. لكن مع التذكر أن حريتنا تبدأ عندما تنتهي حرية الآخرين، ثم أن نضع خطة لحياتنا ونبدأ العمل بها فورا. وتحدَّث مطولا عن معنى الدفء الذي عنون كتابه به، بتوضيح أن البيوت الدافئة تعتمد على أشخاص أصحاء

نفسيًّا يهتمّون بصحتهم النفسية ليُشعّوا الحرارة إلى محيطهم، فالبيوت الدافئة لا تعني الرومانسية بل تقوم على معان أخرى أكثر أهمية، التفاهم أوجها، أن يعلم كل إنسان حاجته الحقيقية من الحياة فيسعى إليها، ولكن مع الانتباه إلى أن نفسه تطلب ما تطلبه نفوس الآخرين، فالعمل المتوازن المشترك يتطلب ارتقاء في فهم المحيط أيضا، وشبهها بالمدفأة التي نشعلها فلا تبث الحرارة إلا بعد أن تشتعل تماما من داخلها، علينا أن نوقد الشعلة فينا حتى تكتمل، لننشر الدفء، فيكون هذا معنى الأخذ والعطاء بشكله الصحيح؛ ففاقد الشيء لا يعطيه، والإنسان المكتئب لا يوفر سعادة لمن حوله إلا بعد أن يتغلب على نفسه أولا، ولا ينشر الحب إلا من أحب نفسه.

أغلقت الكتاب وتنهدت، كان هذا الكتاب بمثابة عصف ذهني، أعطاها بعض النقاط التي تبدأ بها، ولكن كيف تحب نفسها؟ كيف ستشعل هذا الفتيل في داخلها وقد أصابته الرطوبة، لعلها إن توقفت عن أذية نفسها مبدئيا ستقوى على الخطوات التالية، لن تعطي نفسها أي مجال للوم النفس فما مضى انتهى، ستطبق ما قاله عن لجم أفكارنا السوداء، ستحب نفسها لأنها تستحق الحب، كما يستحقه كل مخلوق على هذه الأرض، حتى لو كان الحب عملة نادرة، لعلها إن

أحبت نفسها استطاعت أن تعطيه فيشعر الجميع بذلك فيتبادلونه بمعناه الصحيح، ستحب نفسها في السراء والضراء، في القوة والضعف، وبكل معاني الحب التي لم تدركها قبلا، لأنها تستحق.

هذا هو الدرس الذي فهمته.

ثمينة هي أرواحنا بلا مبررات نعطيها.

ثمينة هي أعمارنا بلا مسوغات نقدمها.

بلا أعذار بلا وعود.

نحن من نعطي قيمة لحياتنا ونحن من نسلبها.

فحين نعطي فرصا ليطعننا الآخرون وقد قدمنا السكين لهم علينا أن لا ننتظر إزالتها منهم، فنحن أحق بتغليف أرواحنا من طعناتهم.

ونحن أحق أن نحب دواخلنا وأن ندافع عن وجودنا، وعن طمأنينتنا وسكينتنا.

حين نغلق آذاننا عن آراء المبغضين فلن تصل إلينا وسوساتهم.

وحين نضيء فتيل شعلتنا يحيطنا وهج نورها ويشرق معنا من لازمنا فقط، من أحبنا وأحب الخير لنا، ولا عزاء لغيرهم.

هي حياتنا لن يحاسب عليها غيرنا.

فلن يجردنا أحد من حق الحياة طالما في العمر بقية.

قارب السعادة

قال لها:

أحسد ابتسامتك الدائمة.

تشعين أملا وتفاؤلا، وتمنحين كل من حولك القوة وتزيلين الحزن بضحكك.

أنت إنسانة سعيدة.

تنهدت لسماعه وهمست: هل تظن أن هذه تسمى سعادة؟

أجاب: ما هي السعادة إذا لم تكن هذه؟

قالت: أنت تخدعك المظاهر. هذه مظاهر السعادة، أما إن لم تمتلك معها أدواتها فلا تسمى سعادة.

إذن ما هي أدوات السعادة؟

ابتسمت كعادتها وأجابت:

السعادة هي القارب الذي تبحر فيه إلى أحلامك فتحلق به في سماء الرضا.

أما أدواتها:

فأن تحب نفسك.

السعادة أن تنظر للمرآة فتريد أن تقبِّلَها لا أن تصفعها.

وأن تمتلك الحافز للحياة.

السعادة أن تنام لأنك تريد أن تستيقظ، لا لئلا تفتح عينيك أبدا.

ثم أن تملك من تحب.

السعادة أن يكون أقرب الناس منك هم من تريد أن تمضي العمر إلى جانبهم، َوألا يفارقوك أبدا.

وأخيرا تذكَّر أن حاضرك هو ما سيملأ صندوق ماضيك، فاملأه بما سيرضيك عندما ستفتحه مستقبلا.

وحلّق بأحلامك إلى حيث تتمنى أن تكون بعد سنين، واجعلها زاخرة بالمجد والسمو، فأحلامك الحالية هي القالب الذي يشكل حياتك ويصوغها.

دورة المشاعر

دورة المشاعر لها تقلبات بين مد وجزر.

تعصف الرياح في خريف الأيام، تتطاير وتتشتت الأفكار.

ثم تتلبد المشاعر وتتكاثف الدموع فتهطل غاسلة فيها كل ما ساقته رياح الكدر.

وتسقي ورود الآمال والأحلام.

ثم تتلاشى التيارات وتختفي الدوامات.

وتستقر الأجواء ويعم الهدوء.

تتفتح البراعم ليحل ربيع الأيام.

حكايتي تحكي كل الفصول؛ فصول العمر:

خريف، وشتاء، وربيع، وصيف.

وفي كل فصل حكمة.

تكتبها خيوط الشمس حين تتسلل كل صباح يوم جديد

كأن سحابة صيف حطت وتزول سريعًا لتشرق الشمس فيها.

تضيء مبصرةً حقيقةً جديدة تنساب على الأوراق.

تتبخر محيطات النفس لتعود وتتكاثف في سماء القلب من جديد.

ليتزاوج القلم مع صفحة الحياة وينجبا أطروحات أحيانًا

وأحيانـًا تتولد أجمل اللقطات وأنقى الصور.

هي مد وجزر لكن هي نعمة تستحق الحياة.

ثوب المثالية

أُحِبُّ الصالِحينَ وَلَستُ مِنهُم
لَعَلّي أن أنالَ بِهِم شَفاعَة
وَأكرَهُ مَن تِجارَتُهُ المَعاصي
وَلَو كُنّا سَواءً في البِضاعَة

الشافعي

ما بين صعود وهبوط، ما بين صواب وخطأ، ما بين نجاح وفشل، ما بين مثالية وواقعية، نتدرج في هذه الحياة، نتمسك أحيانا بالتفاصيل الصغيرة، وأحيانا أخرى نترك حبلنا على الغارب غير قادرين على الانضباط.

تزين لنا الحياة ثوب الصلاح فنلبسه، وتارة تزين لنا الاعوجاج فنعتنقه.

ولا نترك الأمل بجميل صفح من المولى أن يحسن لنا الختام.

المثالية أن نكون صالحين في كل زمان ومكان، ولا أعلم غير الأنبياء من اختصه الله بهذه الصفة.

ومن الملفت أن بعض أصحاب الفكر المثالي يلبسونه حتى وهو مرقّع بالٍ.

عندما لا يُعبّر عن شخصيتنا الحقيقية ولا نستطيع مواكبة ما نقول ونتصرف خلاف ما نريد ونتمنى، ونصدر أحكاما بغير محلها، فهذا ترقيع للثوب.

هناك أوقات علينا التزام الصمت فيها واجتناب رفع الألوية. عندما نعلم أننا لم نعد نصلح لحمل راية ثقيلة علينا، نضعها ليلتقطها من هو أقدر، ولكل زمان دولة ورجال.

أما ادعاء الصلاح في كل وقت لمن لا يمثله داخليا وخارجيا فيلبس ثوبا أكبر من حجمه؛ فهو نوع من النفاق يؤدي لسقطات يراها الجميع إلا صاحبها. وبدل أن نكون مثاليين، سنصبح عبئا على أنفسنا أولا ومحيطنا ثانيا.

لنترفق بأنفسنا ولا نحمّلها ما لا طاقة لها به، ونرفق بالآخرين بلا أحكام ولا أطر، بلا نحت وتطويع؛ فلكلٍّ منا بصمة حياة مختلفة، ولا يصح فرض طبعنا على جميع البشر. فمنا من أثقلتهم الحياة وما عادوا ينصتون إلا لصدى أحلامهم، وما عادوا يحملون إلا أنبوبة هواء يتنفسون منها الصعداء في نهاية كل يوم يتجرعونه. وإن سهلت

عليكم القرارات التي تتخذونها قبل أن يرتد إليكم طرفكم، فإنهم يأكلون الصوان ليصوغوها لتتماشى مع حالهم.

لا تتشبثوا بلون واحد، في حين يمكنكم أن تكونوا ألوانا تزهر بها حياة الآخرين.

اليراع الخالد

ما أنصفناك أيها القلم وما وفيناك حقك، نهديك صخب عقولنا فتنقلها بأجمل عبارات، تهدئ بها روعنا وتنيط لجام أشتاتنا، نرتفع بانحنائك ونسمو بتلاشيك، وقد شاركتنا أفراحنا وأحزاننا، ثم وضعناك غير آبهين باختفائك عندما خبوتَ وأفل نجمك، استبدلناك بلا مبالاة.

هلا عذرتنا فلا قيمة لنا بدونك، فأنت سعادتنا التي نستقيها من قصص مكتوبة بك، وأنت الشجن الذي نحار بتصريفه لولاك، وأنت تاريخنا كله: ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

أنت مسودة فنان، وضع خطوطا ليجعل منها جمالا على شكل لوحة.

وأنت مخطط لمهندس يصمم بناء شامخا؛ فيرتفع به العمران.

وأنت الرفيق ليد طفل ملأ الجدران فرحا بشقاوة وبراءة.

وأنت بيت من الشعر خطه عاشق في ذيل كتاب ففاض قلبه ألما، وفاضت عينه شوقا، فاختلطت العبرات بحبرك ورصاصك.

لا تأبه بنا؛ فأنت باق رغم كل الاختراعات، فلا الألواح الذكية ولا كل الأجهزة تغنينا عنك.

أنـت عراقـة الأدب، أنـت القـيم الرفيعـة، علاقتنـا متينـة لا يشـوبها دخيل ولا تنقصها المتغيرات.

أنت اليراع الخالد..

ضريبة الانتظار

لطالما كنت أنتظر عمر الخمسين. وضعت له صورة في خيالي وقد كبر أطفالي واختفت بعض المسؤوليات، ليصبح وقت فراغي بين قراءة وفسحة. أتخيَّل نفسي وقد جلست إلى كرسي هزاز؛ أقرأ كتابا، أَحضُرُ برنامجا، أزور بعض الأحبة أو يحيطني أحفادي فرحين. أتخيَّل نفسي وقد حلت الطمأنينة، وكان هذا الانجاز الذي كنت أرنو إليه، ولم أفكر بالهرم. كنت أعتبر التقدم بالعمر هدية الزمن لأنعم بالراحة والسكينة.

وها أنا على مشارف التاسعة والأربعين وبقي عام للخمسين. واختفت تلك المشاعر وحلَّ محلها خوف وقلق من الهرم وتقدم العمر، من مسؤوليات من نوع آخر.

ها أنا أنتظر الفرح والراحة والسكينة. كنت أظنها أمورا ترافق التقدم بالعمر بلا عناء ولا جهد، وأدركت خطئي.

ما كنت أبحث عنه كان وهما؛ فالقلق هو القلق والخوف هو الخوف، ولكن اختلفت الأسباب. أدركت أنني أخشى النهايات؛ فالهرم يعني النهاية وتغير معالم الوجه. أما الراحة والجلوس باسترخاء فهي أمور تحتاج لجهد خاص وبذل من نوع آخر.

أدركت أن هذا العمر جاء وقد نسيت أن أصنع نفسي، أن أجعل طموحات أتشبث بها تكون حافزا لنهايات جميلة. أما مجرد التقدم بالعمر فلا شيء إن لم نوفر له قربات!

كان الانتظار طويلا، ولكنه جاء بلا مقدمات. لم أستعد بعد، هذه ضريبة الانتظار وكأنْ لا شيء يأتي بوقته. لكنني سأنتظر، سأنتظر أن أجد نفسي التي بحثتُ عنها طويلا. ظننت أنني سأجدها بعمر الخمسين، وها هو اقترب. هل أجدها بعد الخمسين أم هو مجرد انتظار آخر؟

ها قد مضت

مضت ثلاث سنوات منذ آخر مرة فَتَحَت فيها ستائر بيتها. تأملت برهة بصورة زوجها المتوف على الحائط. تذكرت حديثها معه قبل موته بأيام.

لطالما كان لطيفا حنونا معها، يؤذيه ما يؤذيها ويسعده ما يسعدها.

رغم أنها لم تنجب له أبناء فإنه حافظ على عهده وبقي معها.

اقترح زوجها عليها مغادرة البلدة إلى مكان آخر قبل أن تأتيه المنية؛ حتى لا يصلوا إليها. هذا ما حصل فعلا، عادت للبيت وجهزت أغراضها الأساسية وأخذت معها ما خف وزنه وغلا ثمنه وكل مدخرات زوجها، ولم تنس صورة زوجها الحبيب.

لم تكن تهتم حقيقة للأمور المادية، ولكنها تعلم أن عليها أخذ ما يُقيتها في حياتها الباقية ويغنيها عن الخروج من المنزل. تعلم أنها إن افتضح أمر هربها في أي مكان في هذا البلد لن تنجو. خرجت سريعا، أخذت القطار المتوجه نحو بلدة في الشمال بعيدة نسبيا عن بلدتها. وعند وصولها بحثت عن بيت يؤويها فوجدت بيتا صغيرا مفروشا بعيدا عن وسط البلدة. استأجرته بعد أن أقنعت صاحبه أنها لا تملك أهلا ولا عائلة.

وبعد التعرف على المحلات المحيطة اتفقت معهم على إيصال ما تحتاجه للبيت مقابل ثمن التوصيل، وها هي الآن تعيش وحيدة. ما زال هاجس الموت يحيط بها، وشعورها بأنها مراقبة وملاحقة يعشش في قلبها. تمضي يومها بتنظيف البيت الذي لا يزورها أحد فيه، ومشاهدة التلفاز، وبعد جهد جهيد استطاعت مد شبكة إنترنت لبيتها.

قال لها صاحب البيت عندما جاء لأخذ الأجرة: لماذا لا تدخلين إلى الفيسبوك؟ سألت متعجبة: وما هذا؟

قال إنه مكان للتعارف، تستطيعين التواصل مع العالم من خلاله وتسلين وقتك بدل جلوسك وحيدة. شكرته على الاقتراح وأغلقت الباب. هل تجرؤ على فعل هذا؟ وماذا لو تعرَّف عليها أحد؟

وبداعي الفضول فتحت جهازها المحمول وبحثت عن هذا الاسم فوجدته سريعا.

فهمت أنه يحتاج لاسمها. خافت من الفكرة ثم تبسمت؛ وما يجبرها على وضع اسمها الحقيقي؟! فالآن تستطيع أن تكون أي اسم. اختارت اسما عشوائيا وضعته بعد أن عملت لنفسها إيميلا خاصا بها وأدخلته.

ظهـرت أمامهـا أسـماء كثيـرة ووجـوه. بـدأت بـدخول حسـاباتهم والتعرف على بعض المعلومات، وتاهـت بكثـرة البشـر ومـا يضـعون على حائطهم.

البعض تغمره السعادة، والآخر يعيش برفاهيـة، وغيـرهـم تملَّكَهـم الحزن. حسدتهم جميعا حتى من أصابهم الحزن. يكفي أنهم يعيشون بشخصياتهم الحقيقية، يكتبون أسماءهـم غير مبالين بمن يراقبهم.

مضت ساعات وهي تبحث بهذه الأسماء، ولم تجرؤ في البداية أن ترسل طلب صداقة لأحد. بعـد فتـرة وجـدت نفسـها تريـد أن تتعـرف إلـيهم أكثر. وجـدت فتـاة تضـع صـورتها بطريقـة غامضـة، فلـم تظهـر معالم وجهها. فكرت: لعل هناك غيرها يدخلون بأسماء وهميـة، ولا يجرؤون على كشـف هـويتهم خوفـا مـن هـؤلاء اللصـوص. أرسـلت صداقة وانتظرت، ليأتيها إشعار بعـد سـاعة بقبـول الصـداقة. فرحـت ونسيت كـل خوفهـا ونسيت معـه كـل هواجسـها ووحـدتها. هـل مـن المناسب أن تبعث برسالة لها، وماذا في ذلك؟

أخيـرا فتحـت صـندوق الرسـائل وكتبـت «مرحبـا». جاءهـا الـرد: «أهلا بك».

لـم تسعها الفرحة. أخيـرا تتواصـل مـع بشـر آخـرين، غيـر صـاحب الشقة ومن يوصل لها الطلبات.

ممكن التعرف؟

عرفتها بنفسها وأين تقطن.

أصابتها الصدمة. إنها من بلدتها.، إذن هي أيضا تعاني من هؤلاء اللصوص.

لم تعلم هل تسألها عن أحوال البلدة؟

ثم قالت: لكني سمعت أن بلدتكم مليئة باللصوص وقاطعي الطرق. كيف تتدبرون أمركم؟

لم يأتها الرد إلا بعد برهة وكأن الفتاة خائفة من الرد.

أجابتها الفتاة: لعلكِ التبس عليك اسم البلدة، لا نعاني من أي لصوص أو قاطعي طرق.

كيف ذلك؟! لقد عاشت في تلك البلدة خمسة عشر عاما، ولم تجرؤ على الخروج من المنزل. كان زوجها دائما يحذّرها من الخروج بسببهم.

قال لها عند زواجهم بعد أن انتقلت إلى هذه البلدة: نحن نعيش في بلدة يعيث فيها قاطعو الطرق واللصوص. فإياكِ والخروج من المنزل فيؤذونك. بقيت تقبع في البيت، وكان هو شديد الحرص عليها وعلى أمنها. وعندما مرض ذهبت لزيارته في المشفى بكل حذر، وقال لها: «أنا كنت حمايتك. ولطالما طمع هؤلاء اللصوص بما أجنيه، والجميع يعلم أن لدي الكثير من المال.

وقد اقتربت منيتي، ولن يتركك هؤلاء حتى يحصلوا على ما لم يقووا على أخذه مني، فأنصحك أن تأخذي كل المدخرات وتذهبي لبلدة آمنة. وكما كنتِ هنا، لا تخرجي من البيت حرصا على أمنك».

تذكر حديثه كاملا طيل فترة زواجها عن هؤلاء اللصوص.

عادت لتسأل الفتاة: لكن هل أنتِ تخافين الإفصاح؟ أرجوكِ لا تخافي.

ردت الفتاة بكل تأكيد أن هذا الكلام عار عن الصحة ولا أصل له، وأن بلدتهم آمنة، وبإمكانها زيارتها بأي وقت للتأكد بنفسها.

سكنت أركانها وشعرت أنفاسها ضعيفة، وما عادت تقوى على الحركة.

هل يعقل ذلك؟

إذن، ما كان هدف زوجها من حبسها طيلة سنين طويلة؟

لكنه كان حنونا جدا وحريصا عليها. هل كان حرصه الشديد عليها يستدعي هذا الأسلوب؟

والآن وهي بهذا العمر ماذا تستفيد من هذه المعلومة؟ لقد ذبلت زهرة شبابها وهي حبيسة البيت يسكنها الخوف والقلق على نفسها وعلى زوجها. كانت تدعو يوميا أن ينجو من اللصوص ويصل إلى بيته سالما.

شكرت الفتاة وأغلقت الجهاز وسرحت طويلا. تخيلت الحياة بشكل مختلف؛ تسير في الشوارع وتذهب للتبضع وتزور الصديقات.

قامت بهدوء، فتحت الستائر ونظرت للناس يمشون بسلام لحوائجهم. أخرجت الأموال والمدخرات وقد أخفتها بعناية، وضعتها أمامها. هل استحقت هذه الأموال أن تحبس نفسها خوفا عليها؟

فهمت الآن أنها هي من آذت نفسها قبل أن يفعل زوجها. لقد حرصت على هذه المدخرات، ولو أنها تركتها وذهبت ما خشيت اللصوص.

كان قرارها وحدها.

ذهبت للمطبخ، حضَّرت فنجان قهوة، ورشفته بتمهل.

قامت، لبست ثيابها وحملت صورة زوجها. فتحت الباب وخرجت غير آبهة بأي شيء خلفها.

أمامها الكثير لتعوضه وستبدأ من الآن.

رفعت طرف ثوبها وركضت، واستشعرت الهواء يتخلل أنفاسها.

كانت تبكي تارة وتضحك تارة أخرى.

والآن ها قد مضت..

فهرس المحتويات

نفائس في بقعة الضوء..7
أبواب على الطريق 10
متى تعفو...12
علمتني السنون (1)...14
علمتني السنون (2)...16
غربة الأم..19
عقدة الثقة...22
على عتبة الروح...24
نسبية المألوف...26
العبارات الطائشة 28
تحديات امرأة..30
يأسرني...33
اقلب الصفحة 35
بين موجتين (1)..39
وهم الخوف..41
وعلى أمل تصبحون على خير 44
الأسير الحر 46
العيوب المموهة...48
كف الأمل 50
بساط الريح..52
شموخ وردة 61
راضية مرضية...64
على نقرات التانغو...66
بين موجتين (2)..69

سلامنا الداخلي...72
البيوت الدافئة...73
قارب السعادة...78
دورة المشاعر...80
ثوب المثالية...82
اليراع الخالد...85
ضريبة الانتظار...87
ها قد مضت...89